محمد إبراهيم أبو سنة

في أعقاب الثورة

عباس بن فرناس

Bibliotheca Alexandrina
0081575

89

العربي
للنشر والتوزيع

مهند إبراهيم يوسف

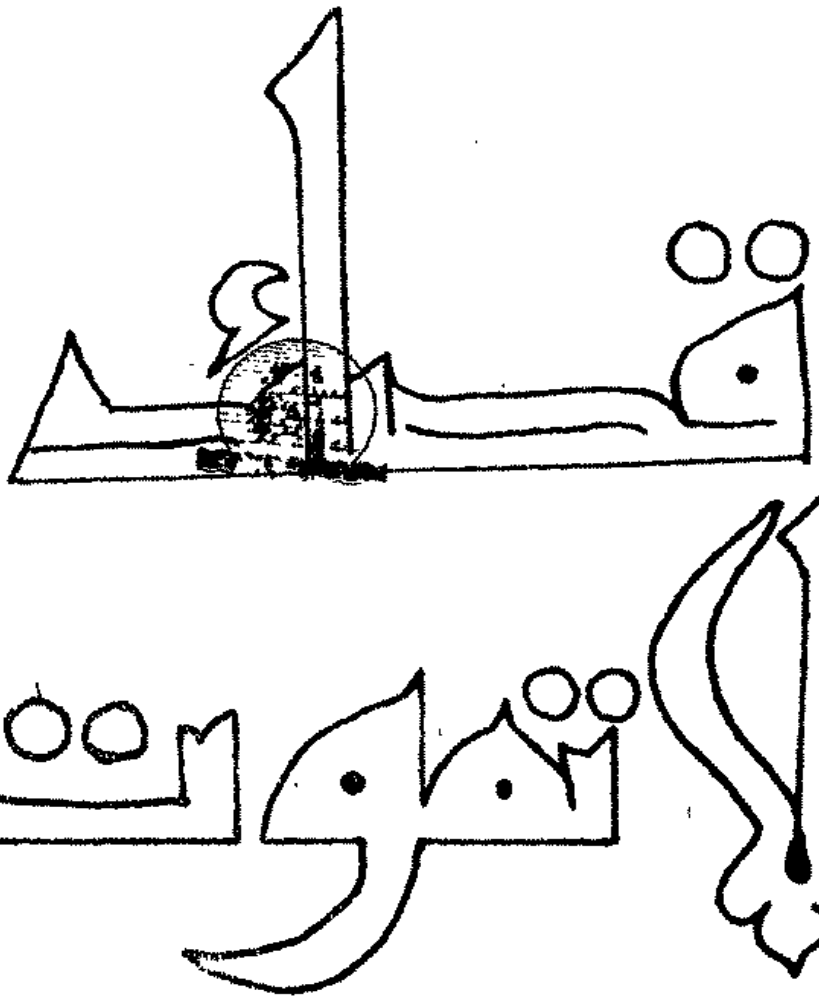

مختارات ودراسات

الرئاسة العامة لمكتبة الأسكندرية
رقم الصنيف 004.67 ي

العربي للنشر والتوزيع
٦٠ شارع السور الشرقي - المقطم بعد الهرم - القاهرة
تليفون ٥٠٢٦٦٠ - ٥٠٢٨٣٠

مدخـــل

ما هو الشعر ؟ سؤال من الافضل ان يظل بلا اجابة حتى لانجازف باقتراح تعريف يحاول ان يقيس الافق وان يحلل زرقة البحر وان يصف صوت العصافير فى الربيع وخفقات القلب فى حضرة المحبوب وحرقه الاكباد عند فراق الاحباب . من الافضل بدلا من تعريف السباحة ان نسبح معافى المياه الدافئة المعطرة التى تتدفق من سماء المتنبى وابى تمام وأبى العلاء المعرىء وقيس بن الملوح وسواهم . ان هذه المختارات التى اقدمها للقارىء هى فى المقام الأول نوع من التعاطف مع القارىء فى الاقتراب من منابع تراثنا الشعرى من خلال اعذب نماذجه وأصدقها فى نفس الوقت — لقد خاض الدكتور طه حسين فى كتابه حديث الاربعاء جدلا مع رفيق متوهم حول جدوى الشعر القديم واظنه كان يتوجه بحديثه هذا الى عامة القراء الذين لا يسيغون لغة غير لغة عصرهم لسبب بسيط هو ان خاصة المثقفين والادباء يقرون بجمال هذا الشعر القديم من اعماق وجدانهم قال عميد الأدب العربى :

— « انما امر الادب القديم عندى اشبه بحديقة طال عليها الزمن واهملت اهمالا متصلا ولم تنقطع عنها بعد ذلك مادة الحياة فمضت اشجارها وشجيراتها تنمو فى غير نظام هذا النمو المهمل المضطرب حتى اختلط امرها اختلاطا شديدا وحتى اصبح من العسير عليك وعلى امثالك ان تجدوا فيه سبيلا الى ماتحبون من النزهة والراحة الى جمال الزهر والشجر فأنتم قد الفتم الحدائق التى يتعهدها البستانى اذا اصبح ويتعهدها اذا امسى وينسقها لكم تنسيقا » .

وقد كان الدكتور طه حسين رائد الدعوة الى التريض بين حدائق الشعر القديم ونحن نتبعه فى هذه الدعوة التى تقترب بنا من مصادر وجودنا الادبى ولكننا لا نذهب الى تراثنا لنتريض فقط بل لنحصل على غذائنا الضرورى للبقاء عربا فى عالم اكتسح القوميات والاجناس وصبغ الادب فى العالم كله بصبغة الحضارة الأوربية ان التوغل فى الماضى والنظر بثبات الى الامام البعيد هو وسيلتنا لجعل ذاتيتنا فعالة وايجابية . وربما يبدو اختيارى لهذه النصوص الرائعة غير منهجى من الناحية الأدبية او من الناحية التاريخية ولكن ماجدوى المنهج ما دامت الحديقة كلها عامرة بالثمار الطيبة . ولقد وقفت أمام آثارنا متعاطفا معجبا شديد التحيز لها دون ان افتعل منظارا عصريا للنظر اليها . ولا شك ان هذه المختارات وسير شعرائها انما توجد فى معظم كتب المختارات وربما قدمت من قبل الى القارىء بطريق او بأخرى ولكن قراءتى لهذه الآثار تأخذ مذاقها الخاص من تجربتى المتواضعة فى الفهم والعرض والتحليل وهى تجربة

تنبع من الحب والقلب اكثر مما تنبع من الدراسة الاكاديمية العسيرة ولقد انعش روحي وايقظ وجداني هذا التجوال في عصور هؤلاء الشعراء ولااعرف وقع هذه الرحلة ايها القارىء عليك قد تخرج من الهجير الى الصقيع من جمال الربيع الى ذبول الشتاء وقد تلفحك انفاس العشاق الذين اكتوت قلوبهم بالهجر والفراق وقد تجد ذلك ممتعا او شاقا او عاديا ولكن هذا حصاد رحلتي وهو حصاد يقدم لاول مرة نادرة من خلال الربط بينها وبين اصحابها الذين كابدوا الحياة قبل ان يكابدوا الابداع ومنهم من كانت حياته ذاتها عملا مأساويا لاتستوعبه القصائد الصغيرة المفردة وانما قد تلمس حقيقته اعمال درامية كبرى مثل حياة الطغرائي التي كانت نموذجا طاغيا لقسوة الطموح وبطشه طموح افقد النفس مذاق الحياة الانسانية بطيباتها المتاحة واوقعه في الخوف الدائم والحذر الطائش والاصرار الجنوني على رغبة كان فيها هلاكه . حتى جاءت قصيدته لامية العجم تحمل اقسى وصف للعصر الذي عاش فيه وتنطوي على سوء الظن بالبشر اجمعين اصدقاء واعداء الاقارب والا باعد على السواء حتى ليقول :

اعدي عدوك من وثقت به فحاذر الناس واصحبهم على دخل
وانما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجل

ان هذه الرؤية الفكرية التي تنبع من معاناة الذات الاليمة من الآخرين ولا تعترف بدورها هي في خلق هذه المعاناة هي رؤية قريبة من رؤية ابي الطيب المتنبي الذي كان طموحا الى اقصى حدود الطموح ونال اقسى مصير على طموحه هذا وموقفه المتشكك والمتعالي من المجتمع الذي عاش فيه . وان كان المتنبي يفترق عن الطغرائي في انه كان صعبا ولم يصل ابدا الى هدفه بينما الطغرائي وصل الى سدة الوزارة التي عاش حياته كلها يحلم بها ، ان مأساوية حياة ونهاية هذين الشاعرين تتجلى في هذه المختارات بصورة واضحة بين القصائد الاخرى التي تنطوي تحت دموع الرثاء او تأوهات العشاق . ولقد اتيح لي ايضا ان اجلو وجه هذه القصيدة الجميلة لكعب بن سعد الغنوي . هذه القصيدة التي تسفر عن صفات الفارس العربي النبيل في سلوكه اليومي ومقصده من الحياة وتجاوزه لتفاهات المغانم الصغيرة وليس بغريب ان يكون الشعر بعد ذلك ديوان العرب فهو ليس مفخرتهم اللسانية فحسب ولكنه بحر الوجود العربي المترامي الشواطىء . حيث نعثر فيه على مخاوف هذا الوجود وتطلعاته ومغامراته واشواقه ولانهائيته وانعتاقه وعبوديته ايضا واذا كان لي ان اقدم هذه القراءات الشعرية مشفوعة برؤية تحليلية للعناصر الشعرية وللسيرة الذاتية لبعض الشعراء فان هدفي هو تأكيد الدعوة التي دعا اليها عميد الادب العربي من ناحية وتأكيد انتسابنا القوي الى تراثنا واعجابنا به ومحاولة جعله يمارس وجوده حيا بين حياتنا الراهنة دون ان يعني هذا ان الحاضر يسلم الزمام للماضي ولا ان يشير الى الى ان الفردوس تابع في العصور الاولى .واذا اتيح لي ان اكسب تعاطف القراء مع هذه المحاولة واحملهم على الرحيل معي الى عوالم هؤلاء الشعراء فقد ظفرت بما يفوق البغية من وراء تقديم هذا الكتاب .

محمد ابراهيم ابو سنه

« واحر قلبـــاه »

لابى الطيب المتنبى

واحر قلبـــاه ممن قلبه شـــبم ... ومن بجسمى وحالى عنده سـقم
مالى اكتم حبا قد برى جسـدى ... وتدعى حب سـيف الدولة الأمم
ان كان يجمعنـــا حب لغـرته ... فليت أنا بقدر الحـب نقتسـم
قد زرته وسـيوف الهند مغمدة ... وقد نظرت اليـه والسـيوف دم
فكان احســن خـلق كلهـم ... وكان احسن مافى الاحسن الشيم
فوت العـــدو الذى يممته ظفر ... فى طيـــه أسف فى طيه نعـم
قد نابعنكشديدالخوفواصطنعت ... لك المهـابة مالا تصـنع البهـم
الزمت نفسك شيئا ليس يلزمهـا ... ان لا يواريهـم ارض ولا علـم
اكلمـا رمت جيشـا فانثنى هربا ... تصرفت بـك فى آثاره الهمم
عليـك هزمهـم فى كل معترك ... وما عليك بهـم عـار اذا انهزموا
اما ترى ظفرا حلوا سـوى ظفر ... تصـافحت فيه بيض الهند واللمم
يا اعدل النـاس الا فى معـاملتى ... فيك الخصام وانت الخصم والحكم
أعيذهـا نظرات منـك صـادقة ... ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفـاع اخى الدنيـا بناظره ... اذا اسـتوت عنده الانوار والظلم
سيعلم الجمع ممن ضـم مجلسنا ... بأننى خير من تسـعى به قـدم
انا الذى نظر الاعمـى الى ادبى ... واسمعت كلمـاتى من به صـمم
انام ملء جفونى عن شـواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصموا
وجاهل مده فى جهـله ضـحكى ... حتى أتتـه يد فراسـة وفـم
اذا رأيت نيوب الليث بـارزة ... فـلا تظنـن ان الليث يبتسـم
ومهجـة مهجتى من هم صاحبها ... ادركهتـا بجـواد ظهره حـرم
رجلاه فى الركض رجل واليدان يد ... وفعـله ما تريد الكف والقـدم
ومرهف سرت بين الجحفلين بـه ... حتى ضربت وموج البحـر يلتطم
الخيـل والليـل والبيداء تعرفنى ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم
صحبت فى الفلوات الوحش منفردا ... حتى تعجب منى القـور والاكـم
يا من يعـز علينـا ان نفارقهم ... وجداننـا كل شيء بعدكم عـدم
ما كان اخلقنـا منكم بتكرمـة ... لو ان امركـم من امـرنا أمـم
ان كان سركم ما قـال حاسـدنا ... فما لجـرح اذا ارضـاكم ألـم
وبيننـا لو رعيتـم ذاك معرفـة ... ان المعـارف فى اهل النهى ذمـم
كم تطلبون لنـا عيبـا فيعجزكم ... ويكـره الله ما تأتون والكـرم
ما ابعد العيب والنقصان من شرفى ... انا الثريا وذان الشـيب والهرم
ليت الغمام الذى عندى صواعقه ... يزيلن الى من عنـده الديـم
ارى النوى يقتضينى كل مرحـلة ... لا تستقل بها الوخادة الرسـم
لئن تركن ضميرا عن ميا منتـا ... ليحدثن لمن ودعتهـم نـدم

اذا رحلت عن قوم وقد قدروا ... الا تفارقهم فالراحلون هم
شر البلاد مكان لا صديق به ... وشر ما يكسب الانسان ما يصم
وشر ما قنصته راحتي قنص ... شهب البزاة سواء فيه والرخم
بأي لفظ تقول الشعر زعنفة ... تجوز عندك لا عرب ولا عجم
هذا عتابك الا انه مقة ... قد ضمن الدر الا انه كلم

صاحب هذه القصيدة هو شاعر العرب الاكبر احمد بن الحسين ابن عبد الصمد الجعفي المعروف بابي الطيب المتنبيء ذاع اسمه في آفاق عصره حتى كنت تلتقي بشعره في اية ارض عربية تقصدها كما كانت شخصيته عونا كبيرا لهذا الشعر على الذيوع لتميز هذه الشخصية بصفات نادرة في مقدمتها الكبرياء والطموح الغلاب وشهوة السلطان والملك فقد كان المتنبي شاعرا يعتقد انه خلق ليكون ملكا ويبدو ان هذا الاعتقاد مصدره معرفته الواسعة بشئون عصره وثقته المطلقة في قدراته هذه القدرات التي جعل لها الشعر العظيم الذي سحر به المتنبي عصره قوة خاصة اقتحم بها الشاعر المدن والممالك والفلوات ظامئا الى تحقيق حلم يراه حقا بينما لم يكن في الحقيقة اكثر من سراب. ولد المتنبي سنة ثلاث وثلاثمائة في محلة يقال لها كنده بالكوفة وكانت الكوفة في ذلك الوقت تعيش فترة قلقة بسبب ثورات القرامطة وتعج بالحركة الفكرية . تعلم في مدارس العلويين واتقن اللغة العربية من خلال ادمانه لحفظ الجيد من الشعر وقد اتصف منذ صغره بالذكاء الشديد وقوة ذاكرته اتم تعليمه في بادية السماوة حيث تتلمذ على لغة البادية الجزلة الفصيحة الصحيحة وما ان اكتملت له ادوات الشاعر الذي وعى ثقافة عصره السياسية والفكرية حتى بدا في التجوال تلهبه هذه النار التي تدفعه لطلب المجد فاتجه الى الشام وظل يمدح بعض الاغنياء والامراء حتى كانت سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة فاهتدى الى سيف الدولة .وكان هذا الامير يجسد آمال الشاعر اعظم تجسيد فقد كان شابا شجاعا مغوارا يعمل على تدعيم حدود دولته بالاغارة على البيزنطيين ورد غاراتهم . وجمع سيف الدولة حوله صفوة علماء وادباء العصر يستمع اليهم باحساس عميق وكان على دراية باللغة بشعرها ونثرها يقدر الشعراء ويغريهم حتى جعل من دولته بلاطا للادب والسياسة والفكر ووجد المتنبي في هذا الامير نموذجا لما ينشد لنفسه فلزمه تسع سنوات قال فيها اعظم شعره في مديح هذا الامير سيف الدولة وهي القصائد التي عرفت بالسيفيات ولكن مكانة المتنبي وشعره اغرت به الاعداء من الشعراء الذين طغى عليهم مجد المتنبي فاحالهم الى مجرد اشباح لشعراء لا يطمعون في اكثر من التواجد في بلاط الامير لا ينتظرون مجدا ولا مالا فقد استولى المتنبي على كل ذلك فبدأوا في الكيد للشاعر العظيم حتى وجد المتنبي نفسه هدفا للنبال وتكاد هيبته تتعرض للمهانة بعد ان تهاون سيف الدولة في دفع الاذى عنه وربما لان سيف الدولة نفسه كان يضيق بالغرور الشديد الذي كان المتنبي لا يحاول اخفاء مظاهره بحال من الاحوال بل لقد كان كل من يرى المتنبي وهو ينشد سيف الدولة يرى فيه كبرياء الامير نفسه ولا شك ان هذه المظاهر كانت ذرائع منطقية ومقنعة

لهؤلاء الذين اولعوا بالدس والكيد لشاعر تياه يضع نفسه فوق الجميع وانتهى الموقف بالمتنبى بعد ان تدهور وضعه الادبى والنفسى الىمفارقة من يود الاقامة عنده ولكنكبرياءه الجريحة كانت تمده بالعزم علىمواصلة الرحلة الى مصر حيث يلمع سراب الامال مرة اخرى فى صحراء حياته ولعله ان يجد عند كافور الاخشيدى ما لم يجده فى كنف سيف الدولة ولقد كان يعتمد بالطبع على الخلافات السياسية القائمة فى ذلك الوقت بين هؤلاء الملوك والامراء . كان المتنبى يتوق الى ولاية ينصب نفسه اميرا عليها وذهب الى مصر ومدح كافور الاخشيدى وبالغ فى مدحه ولكن كافور خيب رجاءه فرحل مرة اخرى الى الكوفة يجرر اذيال الفشل والمرارة ثم رحل بعد ذلك الى فارس حيث تلقى دعوة من ابن العميد فرحل الى هناك ولكن الاقامة لم تطب له ويبدو انه قد سئم وضع نفسه فىخدمة الملوك وان كان قد تلقى دعوة ايضا منعضدالدولةالبويهىسلطان شيراز وكان شابا مثقفا جوادا ولكن المتنبى آثر الرحيل الى مسقط راسه فى الكوفة . وعبر طريق العودة تربص اعداء المتنبى به ليقتلوه بجبل دير العاقول ويقال ان احد اصدقائه قد حذره من الكمين الذى وضع له ولكن المتنبى ابى ان يحتاط للامر ثقة فى نفسه وهكذا اوقع به اعداؤه وقتلوه لتصمت هذه القيثاره الرائعة التى عزفت للشعر العربى اعظم قصائده .

ولكن موت المتنبى بهذه الصورة المأساوية والتى تضع نهاية درامية لحياة بالغة التوتر والقلق والجموح والكبرياء والمجد فتحت الباب امام حياة جديدة لشعره وربما كانت هذه الحياة الجديدة هى اخلد ما يطمح اليه شاعر فقد تنافست الاقلام فى تناول شعره وحياته وتحقق له حلم تقصر عنه احلام الولايات والامارات والسلطة الزائلة .

تأتى هذه القصيدة من شعر المتنبى فى مرحلة من اخطر مراحل حياته من الناحية التاريخية فهى اعلان تحرقه الزفرات وتطرزه الدموع عن فراق المتنبى لسيف الدولة بعد تسع سنوات من المجد والشعر والحلم . وهى مفتتح لعصر غامض مجهول سوف تغرب فى نهايته شمس حياة الشاعر ومن هنا فهذه القصيدة تمثيل لفن المتنبى فى قمة توهجه وابراز خصائصه لانها تأتى فى مفترق طريق صعب كان على الشاعر ان يختار بين كبريائه وبين طمانينة يتجرع خلالها الهوان وقد آثر الشاعر شان الفرسان ان يغامر بالطمانينة والراحة الذليلة لكى يضرب للحظ اشق الطرق . ولكن الشاعر وهو يأخذ قرارا خاصا بحياتهيكشف لنا فىشعره الصراع الحقيقى وراء الظاهر الذى ترصده العيون الساذجة . لقد كان سيف الدولة يرى فى شعره المتنبى مرآة نقية لبطولتهوفروسيتهوتألقمجده كلاهما كان يبقى على الاخر لان كلا منهما يمنح الاخر الرضى عن نفسه. ومن هنا رأينا قصيدة الفراق مشحونة بهذه اللوعة التى لا تكون الا بين المحبين حين يحكم عليهم سيف الفراق بالرحيل .

To: www.al-mostafa.com

ان القصيدة تبدأ بهذه الزفرة المتصاعدة من الكلمات التى كان المتنبى يعرف دقائقها فهذه الواو المدودة فى البداية تعطى ايحاء بالرغبة فى اعلان الشكوى وعدم القدرة على احتمالها وكأنه يفتتح مرثية اليمةوكيف لا وهى نبوءة مبكرة بما سيلاقيه المتنبى منفشلوضياع بعد هذا الزمنالمجيد الذى انقطع وتبدد . هو يشكو حرارة العاطفة والحب ازاء قلب بارد جامد لا يكن حبا ولا شوقا . هى شكوى من السقم الذى ساقه الحب ومن الجفاء الذىيسكن القلوبالقاسيةويبدو أن الايحاء كانغير شاف فآثر ان يصرح ويجهر بهذه المحبة القوية الكائنة فى نفس الشاعر لسيف الدولة . ان الشاعر يواجه الوشاة الذين يكيدون له عند الامير باعلان الحب كأساس للعدل فى العلاقة وهو مدخل فى غاية الذكاء والمهارة والقوة ولما كان اعلان الحب يستدعى على الفور صورة المحبوب فقد اورد الشاعر هذه الصورة . والمتنبى يتحدث عن حالين لسيف الدولة حالة السلم وحالة الحرب فكان فى الحالين احسن خلق الله كلهم .

قد زرته وسيف الهند مغمدة وقد نظرت اليه والسيوف دم

ان الشاعر هنا يقول لنا انه يحب لانه يعرف محبوبه جيدا يعرفه وقد رآهمسالما ورآه محاربا فهو حب الخبرة وهو حب مبصر رشيد ثم ساق مديحه فى اطار البأس والقوة اللائقة بامير شجاع فارس يحمى ثغور الدولة العربية امام بيزانطة ولا شك ان المبالغة وهى عصب الشعر عند المتنبى كله قد اخذت بتلابيب هذه الابيات التى تبدأ بقوله .

فوت العدو الذى يممته ظفر فى طيه اسف فى طيه نعم

الى ان يقول :

عليك هزمهم فى كل معترك وما عليك بهم عار اذا انهزموا

الى هنا نكون قد وقفنا مع الشاعر فى ثلاثة مواقف : الشكوى من ظلم المحبوب الذى لا يجازى على المحبة بمثلها ثم التصريح بهذا الحب المكنون الذى يتمنى الشاعر لو كان الحب اساس العدل وبقدر الحب يكون العطاء ثم هذا الوصف الخارجى المألوف فى شعر المتنبى والذى يرتفع احيانا الى الذرا وقد تهبط به المبالغة احيانا الى حضيض الافتعال والتكلف تتصل القصيدة بعد ان انقطعت بالاجزاء الوصفية تتصل العاطفة الجياشة واللوعة والحزن حين تخرج من صليل السيوف ومعارك سيف الدولة لتدخل الى صميم معركة المتنبى مع نفسه فى هذه القصيدة لقد بلغ المتنبى ان بعض جلساء سيف الدولة يتقولون عليه فكانت هذه القصيدة صرخة عتاب ونبوءة خصام وعزما أكيدا على الفراق ولكنهقبل أن يفارق لابد ان يحارب معركته مع اعدائه اولا ومع سيف الدولة ثانيا ومع نفسه ثالثا : يتلطف الشاعر فى العتاب مقدما الحب كمهاد لدعواه ويلواه فى نفس الوقت : بااعدل الناس الا فى معاملتى ، فيك الخصام

وانت الخصم والحكم ثم يتطرق الى هؤلاء الذين يكبدون له ان المتنبى يعد فى مقدمة هؤلاء الشـــعراء الذين يخلبون الالبـباب فى نفس الوقت الذى يسيطرون فيه على الاحساس بالوسائل الجمالية المتنوعة من خلال الالفاظ الجزلة النبيلة الملائمة والصورة الباهرة والموســيقى التى تزلزل الاذان بسحرها ولكن المتنبى الذى درس الفلسفة يملك شعره منطقا بالغ القوة والحســم مع صعوبة استخدام المنطق فى الشـــعر وهذا هو سر تفوق المتنبى الحقيقى بين الشعراء فهو قد مزج الحس والعقل معا بهذه القوة الخفية التى يملكها شعره . ولا شك ان ثقافة المتنبى الواسعة هى التى صنعت له هذه المقدرة الفائقة انه يضع المنطق الشعرى فى مقدمة حججه مع خصومه .

اعيذها نظرات منك صادقة ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخى الدنيا بناظره اذا اســتوت عنده الانوار والظلــم

ثم يقول فى موضع آخر

اذا رايت ثيوب الليث بارزة فلا تظنن ان الليـــث يبتســـــم

ان رسوخ ثقة المتنبى فى نفسه يهتز قليلا حين يطالعنا بهذه الابيات المباشرة الذاتية التى تعلن بشكل لا مدارة فيه عن غرور واضح ومبالغة متهافتة :

سيعلم الجميع ممن ضم مجلسنا بأننى خير من تســعى به قــدم
انا الذى نظر الاعمى الى ادبى واســمعت كلماتى من به صــمم

ان هذه الثقة تهتز لأن المتنبى يشعر فى اعماقه ان سيف الدولة قد بدا يعطى اذنه للوشاة والحساد الذين كان الغيظ من المتنبى وغروره يكاد يفتك بهم ورغم هذه المبالغـــة التى لا تقنع احدا بصــدقها الا ان قوة الشاعرية فيها تجعل المتنبى بعيدا عن السخرية منه يسبب هذه الابيات وليس ادل على ذلك من شيوع هذه الابيـات واستخدامها وجريانهـا مجرى الامثال والحكم فى بعض الاحيان ومن الذ ىلا يصدق المتنبى حين يقول.

الخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ويقال ان هذا البيت كان سببا فى قتله فقد حاول الهرب من مواجهة اعدائه عندما تربصوا له عند دير العاقول فقال له غلامه اقفر وانت القائل الخيل والليل الخ .

وتعود القصيدة بعد فاصل من الفخر الشديد والزهو الذى يدل على التعاسة الشديدة تعود القصيدة الى الصدق الفنى الى ذات الشـــاعر

المحاصرة بين الاعداء وهو يفكر جديا فى الرحيل عنهم وتتصل مرة اخرى العواطف والمشاعر الرقيقة الحزينة وتعود الابيات الى هدفها .

يـــا من يعـــز علينـــا أن نفارقهم وجداننـــا كل شيء بعدكم عـــدم

اذن لقد كان المتنبى يضع صداقته بسيف الدولة فوق كل متـــــاع محتمل من فراقه ويبدو ان فترة الاقامة المجيدة عند سيف الدولة قـــد الهته ولو بشـــكل مؤقت من حلم حيـــاته وهى الولاية والسلطان . انه يخاطبه بلغة خاشعة وصور تنهل من حب حقيقى وتجاوز عن كل شيء ما عدا هذه الصلة التى يراها المتنبى فى قوة وجوده ذاتها .

ان كان سركم ما قـــال حاســـــدنا فما لجـــرح اذا ارضاكمو الم

ولكن الشاعر يلتفت فيرى حساده واعداءه عن يمين سيف الدولة ويساره ويراهم دائبين فى الانتقاص منه والبحث عن مثالبه ونشر عيوبه فيرمى اليهم باحجاره . انهم فى شدة الغيظ من غروره وثقته بنفسه ولهذا فهو لا يجد ما يزيد من غيظهم ومن مضاعفة مرارتهم الا ان يبالغ فى هذا الغرور وتعظيم هذه الثقة بالنفس .

كم تطلبون لنا عيبـــــا فيعجزكم ويكره الله مـــا تاتون والكرم
ما ابعد العيب والنقصان من شرفى أنا الثريا وذان الشيب والهرم

والقصيدة تتابع صـــــعودها وهبوطها . اســـتقامتها وتلفتها الى الخلف واليمين واليسار ونقترب من نهايتها فيكشف المتنبى بعد ان صرح بالحب والكرموالفخر والعتاب يكشفعن قراره التاريخىانه يشمرالرحيل عن هؤلاء القوم الذين اصبح يغص بينهم بطعامه ويشرق بمائه وكانه يهيء ناقته للرحيل ويســـتعد لعبور الصحراء فى طريقـــه الى المجهول بعد ان تنفست احلامه فى صدره وتقدمت به السن فهو فىالثالثةوالاربعين منعمره والامال بعيدة تطفح الابيات الاخيرة من القصيدة بالحسرة والندم والفخر والهجاء وكانه فى الابيات السبعة الاخيرة يعيد ايجاز القصيدة كلها فهى بمثابة عرض مركز لعناصرها كلها انه يقول كلمته الاخيرة قبل ان يرحل .

أرى النوى يقتضينى كل مرحـــلة لا تستقل بها الوخادة الرســـم

الى ان يقول :

هذا عتـــــابك الا انـــه قصـــــة قد ضـــــمن الدر الا انـــه كلم

لقد كان المتنبى دائما حريصا على انصاف نفسه وهو يرى الاخرين يسيئون الى مكانته العالية فكان يجازف براحته من اجل انقاذ كبريائه

ولقد جاءت قصيدته واحر قلباه واحدة من اصدق قصائده لانها صرخة يائس حائر ضائع واذا كان شعره قد رفع اسمه عاليا فقد كانت النار التى تبدع هذا الشعر تدفع به الى المعاناة القاسية والى مجابهة الاهوال وسواء كان النقاد قد انصفوه او ظلموه حين عابوا عليه هرولته المستمرة وراء سراب الولايات وبريق السلطان المراوغ فان المتنبى كان صريح قدرة الذى الهب فى كيانه الجذوة المقدسة جذوة الشعر العظيم كما وضع فى هذه الكيان نفسه جذوة الطموح القاتل الذى ما كان بامكان الشاعر ان يغالبه ولا ان يكفكف من جموحه ذهب الشاعر وبقى الشعر ومن يدرى ان حياة مختلفة من حياته تلك كانت ستنجب لنا نفس هذا الشعر العظيم . رحم الله ابا الطيب المتنبى .

رثاء الجدة

لأبى الطيب المتنبى

القصـــــــيدة

الا لا أرى الاحداث مدحـا ولاذما ... فما بطشها جهلا ولاكفها حلمـا
الى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى ... يعود كمـا ابدى ويكرى كما ارمى
لك الله من مفجوعة .. بحبيبهـا ... قتيلة شوق غير ملحقها وصـما
احن الى الكأس التى شربت بهـا ... واهوى لمثواها التراب وماضـما
بكيت عليها خيفة فى حياتهـا ... وذاق كلانا ثكل صاحبه قدمـا
ولـو قتـل الهجر المحبين كلهـم ... مضى بلد باق أجـدت لـه صرما
عرفت الليالى قبل ما صنعت بنـا ... فلما دهتنى لم تزدنى بها علمـا
منافعهـا ماضر فى نفـع غيرهـا ... تغذى وتروى ان تجوع وان تظما
اتاها كتابى بعد يأس وترحـة ... فماتت سرورا بى نعت بها غمـا
حـرام على قلبـى السرور فاننى ... اعد الذى ماتت به بعدها سـما
تعجب من لفظى وخطى كأنمـا ... تر ى بحروف السطر اغربة عصما
وتلثمـه حتى اثـار مـداده ... محاجر عينيهـا وانيابها سـحما
رقا دمعها الجارى وجفت جفونها ... وفارق حبى قلبهـا بعد ما ادمى
ولـم يسلها الا المنايا وانمـا ... اشد من السقم الذى أذهب السقما
طلبت لها حظـا ففاتت وفاتنى ... وقد رضيت بى لورضيت بها قسما
فاصبحت استسقى الغمام لقبرها ... وقدكنت أستسقى الوغا والقنا الصما
وكنت قبيل الموت استعظم النوى ... فقد صارت الصغرى التى كانت الكبرى
هبينى اخذت الثأر فيك من العدى ... فكيف بأخذ الثـأر فيك من الحمى
وما انسدت الدنيـا على لضيقها ... ولكن طرفا لا أراك به اعمـى
فـوا اسـفا الا اكب مقبـلا ... لراسك والصدر الذى ملئا حزمـا
والا الاقى روحـك الطيب الذى ... كأن ذكى المسك كان له جسـما
ولو لـم تكونى بنت اكرم والـد ... لكان أباك الضخم كونك لى امـا
لئن لذ يوم الشـامتين بيومهـا ... لقد ولدت منى لانفهـم رغما
تغرب لامستعظما غير نفسـه ... ولا قابلا الا لخـالقه حكمـا
ولا سـالكا الافؤاد عجاجـة ... ولا واجـدا الا لمكرمة طعمـا
يقولون لى مـا انت فى كل بلدة ... وما تبتغى؟ ما ابتغى جل ان يسمى
كأن بنيهـم مألمون بانننـى ... جلوب اليهم من معادنه اليتمـا
وما الجمع بين الماء والنار فى يدى ... بأصعب من أن اجمع الجد والفهما
ولكننى مسـتنصر بذبابـه ... ومرتكب فى كل حال به الغشـما

وجاعله يوم اللقـــاء تحيتـــي ... والا فلست السيد البطـل القرما
اذا فل عزمي عن مدى خوف بعده ... فأبعد شيء ممكن لم يجد عزمـــا
واني لمن قـــوم كأن نفوســـهم ... بها انف أن تسكن اللحـم والعظما
كذا أنا يادنيا اذا اشـــئت فاذهبي ... ويا نفس زيدي في كرائهها قدمـــا
فلا عبرت بي ســـــاعة لا تعزني ... ولا صحبتني مهجـــة تقبل الظلما

شـــاعر هذه القصيدة هو ابو الطيب احمد بن الحسين الجعفي الكندي الكوفي المعروف في تاريخ الادب العربي بالمتنبي وما من شاعر في العربية حظي بمكانته الادبية وعلو شـــأنه فهو اكثر الشعراء اثارة للاهتمام والجدل والاختلاف والاتفاق يحبونه بافراط يدنو من العشق ، ولا يستطيع من ينفر من عجبه الزائد بنفســـه الا الاحترام لفنه والتقدير لشـــعره وقد يضعه النقاد والباحثون في مقدمة شـــعراء العربية على الاطلاق وقد يقدم بعض الباحثين غيره عليه ولكن اجماع المتطرفين والمعتدلين منعقد حول وضعه في الصدر الاول من قائـــمة الشعر العربي .

واذا كان شعر المتنبي بما يتميز به من فخامة وجلال وسطوة قد جعل منه محور الكثير من الدراسات العميقة المتقصية الا ان شخصيته الفريدة هي الاخرى كانت سببا قويا لدفع موجة الاهتمام به الى اماد بعيدة حقا .

ولد المتنبي بالكوفه عام ٣٠٣هـ . اي في بداية العقد الرابـــع الهجري وهو العقد الذي وصفه الباحثون وفي مقدمتهم الدكتور طـــه حسين بالاضطراب السياسي والاجتماعي والازدهار الفكري . ولد في محله كنده ونسب اليها ولقب بكندي وما ان ترعرع وادرك بعض شئون الدنيا حتى اغرم بعلوم العربية غراما شديدا كان نبوءة بمـــا يعتمل في ذاته من موهبة كبيرة تستعد للعطاء الزاخر العظيم اختلفت الآراء حول نسبه وقد اغفل هو الحديث عن هذا النسب اغفالا يوحي بأنه لم يكن يفخر به وقيل ان اباه كان سقاء . يقول الدكتور طه حسين كان للمتنبي اب وجد ولكن المؤرخين والنسابين لا يعرفون من امر جده قليلا ولا كثيرا ويكادون يختلفون في اســـمه . اما ابوه فقد زعموا انهم كانو يعرفون عنه شيئا يسيرا جدا : كانوا يزعمون ان ابا المتنبي كان سقاء في الكوفه تحدث المؤرخون بذلك وهم بين متحدث به يريد ان يرفع من شأن المتنبي الذي انحدر من رجل حقير فملأ الدنيا وشغل الناس وبين متحدث بذلك ليضع من شأن المتنبي الذي انحدر من رجل حقير فورث عنه الحقارة . كان ابوه يبيـــع المـــاء على النـــاس وكان هو يبيـــع مـــاء وجهـــه على الممدوحين وما اظن ان الذين ذكروا مهنة الحسين قد قصدوا الى اثبات الحق من حيث هو حق وتســـجيل التاريخ من حيث هو تاريخ وانما قصدوا الى ما ذكرت لك :الى الرفع من شأن المتنبي او الوضع من قدره فكانهم اذن لم يصنعوا شيئا وكانهم اذن لم يعرفوا من امر المتنبي الا ما عرفوا من امر جده اي لم يعرفوا شيئا ، ومهما يكن من

شيء فقد عرف المتنبى ان شفاء نفسه من تعلم اللغة لا يكون الا بالارتحال الى البادية فذهب الى بادية بنى كلب وهو بعد فتى لا يزيد عمره على عشرين سنة فأقام بينهم مدة ينشدهم من شعره ويأخذ عنهم اللغة اذ كانت لا تزال صحيحة بالبادية . وقيل ان ابا الطيب قد ادعى النبوة فى هذه البادية وتبعه بعض الاعراب فخرج اليه لؤلؤ امير حمص وقبض عليه وسجنه فترة من الوقت ثم استتابه واطلقه . ولصقت به صفة المتنبى بعد خروجه من السجن ولازمته طوال حياته وسافرت بعد ذلك فى تاريخ الادب حتى الآن. وبعد خروج المتنبى من سجنه اتجه الى مدح الامراء والرؤساء وكان سيف الدولة الحمدانى يجتمع فى بلاطه بصفوة علماء وشعراء عصره . فقد كان حارس الحدود الشمالية للامة العربية فلحق به المتنبى عام ٣٣٧هـ واقام عنده تسع سنوات هى قمة حياته وشعره . كان سيف الدولة فارسا شجاعا محبا للعلم والادب وفيا للقيم العربية الاصيلة يعرف اقدار العلماء والشعراء ويصلهم وراى فيه المتنبى صورة حية لما كان يتمناه لنفسه . كان المتنبى تواقا للامارة والسيادة يرى نفسه فوق الشعر والشعراء فكانه راى فى سيف الدولة حلما متجسدا لامانيه واشواقه ومن هنا كانت هذه الحرارة التى تضج بها قصائده وهذا الصدق الذى يهز نفس المتلقى لشعره . فقد كان حبه لسيف الدولة عظيما لثلاثة اسباب : اولا لانه فارس الامة وحارس قيمها فهو رمز لمجموعةمنالقيم التاريخية والانسانية كان المتنبى اول من يعرف قيمتها والسبب الثانى ان سيف الدولة كان النموذج الحى لطموح المتنبى فقد كان يرى فيه صورة من نفسه وكانه وهو يمدحه انما يمدح نفسه من هنا هذهالعلاقة القوية التى قامت فى نفس وشعر المتنبى حتى لا يجد المرء فى هذا الشعر بوناشاسعا بين صورة الممدوح وصورة المادح فى رتبة المجد . والسبب الثالث ان المتنبى كان يتوسل بنفوذ اميره لكى يصل الى احلامه هو الخاصة وما يرجوه من مجد لنفسه . ولكن المقادير قد قوضت احلام الشاعر فى السلطة ودمرت علاقة المتنبى بسيف الدولة ولعبت الوشاية والحسد دورا فى المكيدة التى دفعت المتنبى الى مغادرة حلب عام ٣٤٦هـ متجها الى دمشق ثم بعد ذلك الىمصر حيث قصد كافور الاخشيدى الذى خيب اماله فمدحه وهجاه وتركه فى النهاية متسللا الى بغداد ثم الى بلاد فارس وشيراز مدح عضد الدولة بن بوية فاجزل عطيته ثم انصرف من عنده راجعا الى بغداد فالكوفة عام ٣٥٤هـ وفى الطريق تعرض له فاتك بن ابى جهل فقاتل الشاعر حتى قتل مع ولده وغلامه على مقربة منديرالعاقولمن الجانبالغربىمنسواد بغداد — وبهذا اختتمت حياة هذا الشاعر التياه بنفسه وسط المخاطر التى كان يتحدث عنها كقدر ملازم له . وهذه النهاية مطابقة لحركة هذه النفس الجياشة بالقلق والتوتر والطموح فلم تعرف سكينة فى حياتها .

والقصيدة التى نحن بصددها قالها الشاعر فى رثاء جدته وتقول الروايات ان كتابا من جدته لامه قد ورد عليه وفى هذا الكتاب تشكو

الجدة لابن ابنتها المتنبى شوقا اليه وطول غيبته عنهـــا فتوجه
العراق ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك فانحدر الى بغـ
وكانت جدته قد يئست منه فكتب اليها كتـــابا يسألها المسير
فقبلت وضمته لقلبها سرورا به وغلب الفرح على قلبها فقتلها .
هذه القصيدة الصادقة التى تعتصرها اللوعة ويسيطر عليها الا
وقد سئل اعرابى : ما بال المرثى اصدق اشعاركم قال لاننا نقو
واكبادنا تحترق .فهل كانت كبد المتنبى تحترق حين قال هذه القص
ان غربة الشاعر المتصلة واختفاء اسرته يجعل لهذه الجدة التى
ان صلته بها كانت عميقة مكانة كبيرة واساسية فى حياته فهى
الذى يربطه بأصله فى الدنيا . فهو يواجه كل يوم اعداء لشعره .
ومنافسه لشخصه بسبب اتجاهاته الفكرية واحقادا تنمـــو من
الذى يسببه اعتزازه بنفسه لدرجة تجعله على وشك احتقار الا
ومن هنا كان لصوت الاسرة المتجسد فى نداء جدته وشـــوقها اليـ
لهذا الصوت قداسة فى قلبه . لانه صوت يحمل له الحب الـ
والعاطفة المجردة من الغرض والانتمـــاء الحقيقى انتمـــاء الدم
لا يعرف التغير . ان حنان هذه الجدة هو الذى جعل فقدانها
غاية الالم لنفس هذا الشاعر الذى اعتاد المخاطر وها هو يبدو
على صدر جدته . فليس ثمة شك فى ان المتنبى كان يحن وسط
المعارك الادبية والسياسية الى هذا الحنـــان الدافق الذى تفيـ
قلوب الامهات والجدات والذى كان الشاعر اشد حاجـــة اليه ؛
الاحقاد التى تحيط به . والقصيدة تحمل كل خصائص المتنبى الف
ففى لغتها هذا الجلال الباهر الذى يتجلى فى حساسية الاختيار ا
للكلمة القوية الغنية بالالات والتى تلعب فى علاقاتهـــا بالكلمات الا
وفى موقعها من الجملة دورا اساسيا فى بناء صورة شعرية تجمـ
الحسى والمعنوى فى حرارة وصـــــدق وخيال بعيد قادر على التـ
والادهاش والاقناع فى نفس الوقت وفى القصيدة هذه الموسيقى ا
الثقيلة الممتدة حيث اختار لها بحر الطويل بابعاده الواسعة . و
كذلك صوره القوية الجامحة التى تتجاوز الواقع الى التجريد فى
من المبالغة المسرفة احيانا والمعقولة احيانا اخرى ولكن اهم ما
الى انتماء هذه القصيدة الى شاعرها المتنبى هو وجود الشاعر
كبريائه وفخره بنفسه . هذه الذاتية الواضحة التى كان ينتقل
الشاعر فى كل بقعة يرتحل اليها وفى كل قصيدة يقولها . حـ
قصيدة حزينة من قصائد الرثاء لا ينسى المتنبى نفسه وشجاعته ،
بنفسه . وتبدأ القصيدة ككل قصائد الرثاء بالتأمل الحزين فى طبـ
هذا الموت المفاجىء الذى يصيب الكائنات فيسلبها هذه الهبة الغـ
المقدسة . الحياة ـــ ان الشاعر يبدأ متماسكا يكاد يعلو على ا
ويكاد يلجأ لتعزية نفسه وهذا العزاء الذى يلجأ اليه انما هو ،
من خبرته بمصائب الدهر ونوائبه فهذه الاحداث الاليمة انما هى
غير منطقى وغير معقول خال من الارادة والقصد وهى بهذا لا تـ
اللوم او الذم لان اللوم والذم يقومان على معيارى الخير والشر
ينبعان من الارادة وما دامت هذه الاحداث خالية من القصد والارادة

لاتستحق الثناء او القدح . ثم يقرر الشاعر ان العدم هو الغاية وان النهاية هي نفسها البداية هذه الدورة الابدية التي تشمل الوجود والعدم فالمرء محكوم بالعودة الى ما كان عليه والى العدم اذن سوف يصير ولسوف ترجع الزيادة النقص من جديد . ان المتنبى لا يتمهل على اعتاب القصيدة فيلقى الينا بحكمته الثابتة المؤكدة التى اطلعته عليها خبرته بهذه الدنيا وبعد ذلك يذهب الى التفجع على هذه الجدة العزيزة . وهو يرى أن الشوق هو الذى قتلها شوقها اليه ومن هنا كانت لوعته . هذا الشوق البرىء الطاهر لانه شوق الام الى ابنها او الجدة الى حفيدها . وها هو يحن الى الموت طلبا للقرب منها ويعشق التراب وما ضم فى احشائه من اجلها ولجأ المتنبى لمبالغاته المعتادة فيرى ان هجرها كفيل بقتل البلد الذى رحلت عنه لو كان الهجر يقتل المحبين . ويؤكد من جديد معرفته بالليالى وما تجلبه من محن فهو لا يهتز ويكاد لايكترث فهو يرى ان هذه الداهية التى نزلت به بوفاة جدته لم تزده علما بما تصنعه الليالى . هو خبير مجرب ذاق حلو الايام ومرها ولعل مرها اكثر من حلوها لديه وهذا يذكرنا بنفس موقفه الذى يقول فيه :

وصرت اذا أصابتنى سهام تكسرت النصال على النصال
وهان فما أبالى بالرزايا لانى ما انتفعت بان ابالى

وها هو ذا المتنبى يتجلى فى هذه المقابلة بين السرور والغم فى البيت الذى يقول فيه :

اتاها كتابى بعد يأس وترحة فماتت سرورا بى فمت بها غما

ها هو يصنع من المفارقة صورة مؤثرة من صوره التى يمتلىء بها شعره حين يقابل بين السرور والغم وبين «بى وبها» فهى سرت به اى بكتابه وهو اغتم بها اى بنبأ وفاتها . وليست المفارقة فقط هى التى تكشف عن فنية المتنبى فهى حيلة تقليدية لدى الشعراء وانما يميزه الايجاز الشديد وهنا يسوى بين موتها الحقيقى وموته المجازى . ثم يحرم الشاعر على نفسه السرور هذا القاتل الذى اودى بحياة جدة الشاعر ويعتبره الشاعر سما محرما على نفسه وهو تحريم غريب لأن الفرح كالحزن يغزو النفس فلا تقدر على مقاومته ولكن هى مبالغات المتنبى .وابيات القصيدة تتتابع وهى تمزج بين صورة الجدة التى جاءها كتاب حفيدها فقبلته وتعجبت من خطه وسطوره كأنها ترى نوعا غريبا من الغربان وهى التى يوجد بجناحها بياض . ولا شك أن عجبها من هذا الخط انما هو لشدة شوقها اليه تمزج هذه الصورة بلوعة نفسه. وها هو يصور تمكن حبه من قلبها فهو حب قوى ثابت لم تستطع الغربة والايام أن تدفع به الى السلوان او النسيان وانما هو الموت وحده الذى قهر هذا الحب الغلاب فكأنه يرى أن الموت وحده وهو الذى يعد أقوى من حبها له وهو يعتبر هذا الحب والشوق والحنين

نوعا من السقم لا يغلبه الا ما هو اشد منه فالموت اقوى منه لانه هو الذى اذهبه .

ولم يسلمها الا المنايا وانما اشد من السقم الذى اذهب السقما

وها هو الشاعر يعبر عن سبب غربته فى البلاد البعيدة وكانه يندم لفراقه لها وبعده عنها ولكنه يتعزى بأن هذه الفرقة انما كانت لطلب حظه من الرزق ومن اجلها ايضا فهو يسعى فى الارض من اجلهـا ولكن هذا الحظ قد فاتها وفاته هو ايضا . ويظهر ندمه واضحا حين يقول : وقد رضيت بها قسما فكانه يقول بانهما كانا كافيين كل منهما للآخر بدون هذه الرحلة وهذه الغربة . وها هو يستسقى الغمام لقبرهـا بعد أن كان يستسقى اى يطلب الحروب والمعارك . وكان الشاعر يرى ان الفراق والغربة انما هما شىء عظيم ثقيل الوطاة على النفس فكيف يرى الموت الآن لقد اصبح الفراق والغربة والترحال فى الارض شيئا هينا صغيرا بجانب هذا الموت الذى صارت اليه . وها هو يحاورها بمنطق الواقع وبمنطق واسلوب حياته الذى داب عليـــه فهو لا ينى يأخذ بثاره من اعدائه ولكن كيف يأخذ بثارها من الحمى .

هبينى اخذت الثار فيك من العدى فكيف يأخذ الثار فيك من الحمى

وبعد هذا البيت القائم على المنطق المثير المدهش هذا المنطق المقنـع المسكت اذا به يقفز الى بيت من اجمل ابيات القصـيدة بل انه من أجمل الابيات فى الشعر العربى قاطبة . فها هو الحزن قد بدأ يمسك بوجدان الشاعر ويملك عليه حواسه حتى لقد بدت الدنيا مغلقة المنافذ امامه . وكانه يقف محاصرا لا يعرف كيف يتجه وقد سدت امامه الطرق وها هو يختبر بشاعريته الرائعة تأثير صوره البالغة الايحاء والدلالة على الحزن والفقد . انه يقف حائرا محاصرا فهل الدنيا اغلقت دونه الطرق أم انه لا يتحرك من مكانه لانه لا يرى شيئا انه يتوهم هنـا مجموعة من الاخيلة وهو يحسم هذا الموقف مبرهنا على صدق عاطفته وقوة احزانه وشعوره بالحصار بهذا البيت الرائع .

وما انســدت الدنيا على لضيقها ولـــكن طرفا لا اراك به اعمـــى

هو واقف مكانه وهل يقف الا المحاصر او الاعمى نعم العمى هنا هو عدم رؤيتها امامه وكأن الدنيا كلها لا تكفى عوضا عنهـا . وكأن القصيدة بهذا البيت قد وصلت الى ذروة حزنها وتفجعها ومرارتها . لان القصيدة تنعطف بعد بيتين عاديين هما :

فـوا اســفا الا اكب مقبـــلا لراسك والصدر اللذى ملئا حزما

والا الاقـى روحـك الطيب الذى كأن ذكى المسك كان له جســـما

تنعطف القصيدة فى اتجاه جديد . اتجاه لا يناسب المقام . ان المتنبى يتجه الى الفخر الشديد بنفسه حتى فى قصيدة رثاء جدته فما هو تفسير ذلك . ربما كان تعليل ذلك ان الشاعر وهو محاط بعداوات شديدة يشعر كأن هذا الحادث وانما يصور لأعدائه أن الضعف قد حل به وان ركنه قد وهن فهو يعلن بثبات ورسوخ عن مفاخره وربما كانت معارك الشاعر الكثيرة الطاحنة تملأ نفسه فلا تترك فيها فراغا لتأمل شيء آخر فى الحياة . ها هو الشاعر يتصور أن اعداءه ان كانوا يشمتون به فى هذا اليوم فقد جاء رغما لانفهم ثم تستمر القصيدة فى اتجاه الفخر بالنفس فخرا يحمل الكثير من المبالغات والقسوة على الآخرين . وهو فخر يوحى بنفس لا تعرف الطمأنينة تتوجس دائما الشر من الاعداء . هو يلجأ الى نوع من التماسك المصطنع ليداري هذا الخوف الشديد الذى يسكن نفسه .

تغرب لا مستعظما غير نفسه ... ولا قابلا الا لخالقه حكما
ولا سالكا الا فؤاد عجاجة ... ولا واجدا الا لمكرمة طعما
يقولون لى ما انت فى كل بلدة ... وما تبتغى ما ابتغى جل ان يسمى

ويستمر الشاعر فى مبالغاته حتى يقول :

وانى لمن قوم كان نفوسهم ... بها انف ان تسكن اللحم العظما

وكما بدأ المتنبى بهذا التدبر الذى يعرف مذاق الايام ينهى قصيدته بتأكيد فهمه لها وهو فهم يدعوه الى كراهيتها ويدعو هو نفسه الى المزيد من الكراهية لها .

كذا انت يا دنيا اذا شئت فاذهبى ... ويا نفس زيدى فى كرائهها قدما
فلا عبرت بى ساعة لا تعزنى ... ولا صحبتنى مهجة تقبل الظلما

فهل هى قصيدة فى رثاء الجدة ام قصيدة فى الفخر . ام نحن امام قصيدتين لهما غرضان مختلفان ؟ هذه هى شخصية المتنبى تؤكد وجودها وضيقها بمن حولها ومعرفتها المتشائمة بالحياة ولكن مهما يكن موقف الشاعر الفكرى الا ان شعره يظل محلقا فى الذرى التى اعتاد دائما التحليق عندها .

مرثيـــة

« أحسن بالواجد من وجده »

لأبى العلاء المعرى

أحسن بالواجـــد من وجـــده ... صـبر يعيد النـــار فى زنـــده
ومن أبـــى فى الرزء الا الأســى ... كان بـــكاه منتهى جهـــده
فليذرف الجفـــن على جعفـــر ... ان كان لم يفتـــح على نـــده
والشيء لا يـــكثر مداحـــة ... الا اذا قيـــس الى ضـــده
لولا غضى نجـــد وتلامـــه ... لـم يشـن بالطيب على رنـــده
ليس الذى يبكى على وصـــله ... مثـل الذى يبكى على صـــده
والطرف يرتاح الى غمضـــه ... وليـس يرتاح الى ســـهده
كان الأســى فرضـا لوان الردى ... قال لنـــا افدوه فلم نفـــده
هـــل هو الا طالـــع للهـــدى ... ســـار من الترب الى ســـعده
فبات ادنى من يـــد بيننـــا ... كانـــه الـــكوكب فى بعـــده
يا دهـــر يا منجـز ايعـــاده ... ومخلف المـــأمول من وعـــده
اى جـــديد لك لـــم تبـــله ... واى اقـــرانك لـــم تـــرده
تستأسر العقبـــان فى جوهـــا ... وتنـــزل الاعصـــم من قنـــده
ارى ذوى الفضـــل واضدادهم ... يجمعهـم ســـيلك فى مـــده
ان لم يكن رشـــد الفتى نافعـــا ... فغيـــة انفـــع من رشـــده
تجربة الدنيـــا وافعالهـــا ... حثت اخا الزهـــد على زهـــده
والقـــلب من اهوائه عابـــد ... ما يعبـــد الـــكافر من بـــده
أن زمانـــى برزيـــاه لـــى ... صـــيرنى امـــرح فى قـــده
كاننـــا فى كفـــه ما لـــه ... ينفـــق ما يختـــار من نقـــده
لـــو عرف الانســـان مقـداره ... لم يفخـــر المولى على عبـــده
امس الذى مـــر على قربـــه ... يعجـــز أهـــل الارض عن رده
اضحى الذى اجـــل فى ســـنه ... مثل الذى عوجـــل فى مهـــده
ولا يبـــالى الميـت فى قبـــره ... بذمـــة شـــيع ام حمـــده
والواحـــد المفـرد فى حتفـــه ... كالحاشـــد المكثرفى حشـــده
وحـــالة البـــاكى لآبائـــه ... كحـــالة الباكى على ولـــده
ما رغبـــة الحـــى بابنـــائه ... عمـــا جنى الموت على جـــده
ومجـده انعـــاله لا الـــذى ... من قبـــله كان ولا بعـــده
لـــولا سجـــاياه واخلاقـــه ... لـكان كالمعـــدوم فى وجـــده
تشـــتاق ايار نفوس الـــورى ... وانمـــا الشـــوق الى ورده
تدعـــو بطول العمر افواهنـــا ... لمـــن تنـــاهى القلب فى وده
يسر ان مـــد بقـــاء لـــه ... وكل مـــا يـــكره فى مـــده
افضل ما فى النفس يغتـــا لهـــا ... فنستعيـــذ بالله مـــن جنـــده

فآفة العاشـــق من طرفـــه وآفـــة الصـــارم من حـــده
كم صـــائن عن قبـله خـــده ســـلطت الارض على خـــده
وحـــامل ثقل الثرى جيـــده وكان يشكو الثقـــل من عقـده
ورب ظمـــآن الى مـــورد والمـــوت لو يعلـــم فى ورده
ومرســـل الغـــارة مبثوثـــة مـــن ادهـــم اللون ومن ورده
يخوض بحـــرا نقعـه مـــاؤه يحمـله الســـابح فى لبـــده
اشـــجع من قلب خطيـــة على طويـل البـــاع ممتـــده
يرى وقـــوع الزرق فى درعـــه مثـــل وقوع الزرق فى جلـــده
لا يصـــل الرمح الى طرفـــه ولا الى المحـــكم مـــن سرده
يلتى عليه الطعن القـــاعك الحسب على المسرع فى عقـده
بلحظـــة منه فمـــاد ونهـــا يرد غرب الجيش عن قصـــده
امهـــله الدهـــر فاودى بـــه مبيفـــة يحدى بمســـوده
فيا اخـــا المفقـــود من خمســـة كالشهب ما ســـلاك من فقـده
جـــاعك هذا الحـــزن مستجديا اجـــرك فى الصبر فلا تجـــده
ســـلم الى الله فكل الـــذى ســـاءك او سرك من عنـــده
لا يعدم الاســـمر فى غابـــه حتفـــا ولا الابيض فى غمـــده
ان الـــذى الوحشـــة فى داره تؤنســـه الرحمـــة فى لحـــده
لا اوحشت دارك من شـــمسها ولا خـــلا غابـــك من اســـده

شاعر هذه المرثية التى نزود بنا طريق الحكمة والتامل البصير فى شان الموت والحياة هو ابو العلاء المعرى . رهين المحبسين كما اشتهر فى تاريخ الادب العربى ولد الشـــاعر ابو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان المعرى التنوخى عام ٣٦٣هـ بمعرة النعمان ومات بها عـــام ٤٤٩هـ . وبين الميلاد والموت رحلة حياة قلما شهد لها التاريخ الادبى نظيرا . فرغم آفة العمى التى لحقت به وهو فى الثالثة من عمره الا انه كان عبقرية فنية تتجاوز بعطائها نطاق عصره وتمتد ببصيرتها فى الزمان والمكان والكائنات فتبدع هذه الروائع الشعرية الخـــالدة . كان عصر الشـــاعر وهو القرن الرابع الهجرى مليئا بالاضطرابات السياســـية والاقتصـــادية والاجتماعية نتيجة لتدهور كيان الامبراطورية الاســـلامية وانقسامها الى دويلات تغلى بالاحقاد والفتن والمؤامرات .وكانمثل هذا العصر باعثا وبالحاح شـــديد على اعمال الفكر فى شـــئونه . وكانت المرارة هى حصاد من يضع فكره وعقله فى معتركه .

قام الشاعر باعداد نفسه اعدادا هائلا ليقوم بدور الشـــاعر الفيلسوف المفكر فكان اعجوبة فى علمه وذكائه وفهمه يقول عن نفسه « ومنذ فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسى باجتســـداء علم من عراقى ولا شامى وانصرفت وماء وجهى فى سقاء غير سرب لم ارق منه قطرة فى طلب ادب ولا مال » .

رحل الى بغداد عاصمة الخلافة المتداعية وهو يحلم باعترافهـ بشانه الخطير . وقيلت آراء كثيرة فى اسباب رحلته الى بغداد و فى السادسة والثلاثين من العمر ولكنه دفع عن نفسه كل ادعاء ذهب الى بغداد طلبا للمال او الشكوى من ظلم لحق به ولكنه ذ طلبا للعلم وحبا فى خزائن كتبها ولكن بغداد اســاءت اليه فلم تح ضيافته ولقى الاهانة من بعض العلماء والنحــاة وتروى الدكتورة الشاطىء فى كتابها عن ابى العلاء هذه الواقعة : يذكرون أن ابا ال كان يوما بمجلس المرتضى وقد جاء ذكر المتنبى فتنقصه المرتضى وم يتتبع عيوبه فقال ابو العلاء لو لم يكن للمتنبى من الشعر الا قصيد لك يا منازل فى القلوب منازل د

لك يا منازل فى القلوب منازل لكفاه فضلا فغضب السيد المرتضى وام فسحب برجله واخرج مهانا من مجلسه وقال لمن يحضرونه : اتدرون شىء اراد الاعمى يذكر هذه القصيدة ؟ فان للمتنبى ما هو أجود منهـ يذكره قالوا النقيب السيد اعرف فقال اراد قوله :

واذا انتســك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بانى كامل

فاذا اضفنا الى هذه الاهانة اهانات اخرى ســبقتها فهمنــا عودته مثقل النفس من بغداد عازفا عن الناس حزينا كئيبا معتزلا مؤ جدران بيته على اتساع الدنيا كلها . كان نباتيا لا ياكل اللحم . نفسه بالشدة وراضها رياضة عنيفة فى محــاولة لقتل شــهوات نف واخراج الدنيا من قلبه ورغم انه يشكو حبها كما يقــول « لاكتمـ مولاى ما انت به عليم ـــ ان أسفى على الدنيا طويل . احب الدنيا كانها تحبنى والغريزة عن الرشد تذبنى . « احب الدنيا وآلتها ليس فى وقد يئست من بلوغها واليأس مريح فالام التشوق والضلال » ر انه يشكو حبها فقد انتصر وقهرها فى نفسه واستطاع ان يغوص اعماق بحارها ليستخرج لؤلؤ الحكمة التى تجلت فى شعره ونثره ء السواء . يتحدث الدكتور طه حسين عن شعره فيقول « ليس لدين من شعر ابى العلاء الا ثلاثة دواوين : أولها سقط الزند والمشهور يشتمل على شعره أيام الشباب وان كان ذلك موضع بحث فانا ؛ فيه قصائد نظمت فى بغداد وبعد رجوعه الى المعرة بلنجد قصيدةنظ سنة اربع عشرة واربعمائة وهى الطائية التى بعثها الىخازن دار الـ ببغداد ويحسم طه حسين هذه القضية بقوله : فلا شــك فى ان العلاء انما لاحظ ان شعر الشــباب فى سقط الزند اكثر من شـــ الكهولة والشيخوخة فحكم عليه هذا الحكم ولعل الكتاب قد جمع ب رجوع ابى العلاء من بغداد ثم زيد عليه ماجد من الشــعر . والثا الدرعيات وهو ديوان صغير يشتمل على اشــعار وصفت فيها الد خاصة اما الديوان الثالث فهو اللزوميات وهى اكبر الدواوين واجله خطرا نظمت كلها فى الطور الثالث فمثلت حياة عقله ووجدانه وخلقـــ

احسن تمثيل «ولأبي العلاء مؤلفات نثرية لعل اشهرها رسالة الغفران ويحظى ابو العلاء المعرى باهتمام شديد تجاوز النطاق الاقليمى العربى الى المجالات العالمية فقد اهتم به المستشرقون اهتماما كبيرا وذلك نظرا لما فى أدبه من نظرة فلسفية عميقة للكون والحيـاة . ولقد اتهـم ابو العلاء فى عقيدته ولكن المدافعين عنه وجدوا أدبه أقوى الحجج على ايمانه واذا كانت صعوبات حياته وفساد عصره قد قاده الى رأى قاس فى الناس والاشياء فان هذه الصعوبات نفسها كانت مدخل روحه الى رياض الحكمة والشعر بحيث عاد الينا من رحلة حياته القاسـية بهذا التراث الضخم من الشعر والنثر الذى يضاهى بفخر ارفع ما كتب فى ادب اى امـة على الارض هذا ابو العلاء المعرى . اما قصيدته فهى واحدة من اروع المراثى التى كتبت فى الشعر العربى فى كل عصوره. فى هذه القصـيدة القوية البناء والجزلة العبـارة نعثر على كنز غنى فياض بالحكمة واذا كانت المراثى تكتب للتفجع ونثر فضائل المتوفى فان لابى العلاء المعرى منهجا متميزا . فهو لا يغفل الاضاءة الاخلاقيـة للفقيد ولا يهمل تصوير لوعة الحزن عليه ولكنه يجمـع الى ذلك كله قدرة خارقة على النفاذ من الخاص الى العام. على تجاوز الحزن الاصغر الى الحزن الاكبر يملك ان يرى الكليات الشاملة فى الجزئيات العابرة وهذا دور الشاعر الحقيقى . الذى يرى فى التجربة الذاتيـة معبرا الى التجربة الجماعية . هذه القصيدة قالها ابو العلاء المعرى فى رثاء ابن جعفر بن على بن المهذب . واذا نظرنا اليها نظرة شاملة وجدناها فى تدبر امر الحياه والموت تدبرا يشفى النفس من همها الثقيل ولهفتها وغيرتهـا والتفجع عليها . هى قصيدة فى السلو عن الدنيـا والعزاء والتطهر : تبدأ بدفع الحزن عن النفس لتقودنا الى الحزن الاكبر وكأنه يرى الدنيا مسرحا للأحزان ومن ثم لا تستحق كل هذا التفجع . وعلى المرء فيها الا يستسلم لمواجعة وأرزائه فان فعـل واستسلم فسيقوده ذلك الى الانطفاء بدلا من التوهج والنشاط نجد الشاعر يبدأ القصيدة موصيا نفسه التى يبدو انه يدير معها حوارا خفيا « منلوج » يوصى الشاعر بالصبر حتى تمتلىء النفس بالقوة لاحتمال الحياة وما تأتى به الايام . فهو يرى ان الاسى يستنفذ الطاقة حتى يكون جهد الحزن ضائعا كله فى البكاء وحتى لا يكون قادرا على غيره وكان الشاعر يرى فى البكاء شيئا تافها سهلا اذا واجه به المرء الرزايا انما يطلب الشاعر للمرء جلدا وقوة وصـبرا يستعين بها على بلاء الايام . ولكن الشاعر يضعف ويأمر مرة اخرى بالبكاء لان جعفر لا نظير له . ويميل الى بيان فضل المرثى شـأن التقليدين من الشعراء الذين يلحون على اظهار فضائل الفقيد وتوشك الابيـات ان تهبط الى المألوف من المعانى لانها جنحت الى المألوف من الاغراض . فهو يشير الى تفوق جعفر على اقرانه ويقيم الاتيسة الفنية على مقارناته التى قد تتوسل بالمنطق والحجة العقلية والتلاعب الذى يظهر تمكنه الشديد وقدرته فى سبك جمله فى يسر وبراعة .

ليس الذى يبكى على وصله مثل الذى يبكى على صده

ويستمر فى الاستدلال على المعنى فى البيت الذى يليه موضحا ان العين ترتاح لما يريحها وتتعب مما يتعبها . فليس حب جعفر بعجيب وهو الذى يريح النفوس وتتمنى هذه النفوس قربة منها . ويبدو الشاعر وكأنه يعتذر عن طلب السلوان والتوصية به فهو يشير الى ان هذا الحزن كان سيغدو فرضا لازما لو انه كان فداء نافعا للفقيد وبخلنا به عليه . ولكنه نجم صاعد الى مكانه الحقيقى وها هو الذى كان قريبا منا صار بعيدا كأنه الكوكب فى بعده الشاسع . ان الشاعر لا يقف عند صفات هذا الفقيد العزيز لأنها كما يبدو مستقرة فى نفس من يعرفه وهى واضحة ظاهرة لا تحتاج الى تذكير بها ولا يحتاج الشاعر فى هذا المقام العصيب الا لمغالبة الحزن وفهم ظاهرة الموت فى ضوء ظاهرة الحياة وها هو يلتمس المدخل الى جوهر القضية . انه الدهر . هذا العدو الغامض للحياة والاحياء وهو يخاطبه معاتبا لاصقا به صفة العداء فهو ينجز الوعيد ويخلف الوعد . وها هو يجرد منه كائنا عاتيا قاسيا لا يغلبه احد ولا أحد له يستعصى على الموت . فهو يأسر العقبان تلك الطيور القوية الماهرة التى تجيد التحليق فى الآفاق العالية ومع ذلك فالدهر يأسرها من آفاقها كما يأتى بالوعل الشارد من جبله العالى . الشاعر يصف الدهر بالعدوانية فهو سريع الاذى ومخلف للظنون التى تأمل الخير منه وهو قوى باطش لا يفلت منه محلق فى الفضاء ولا هارب فى اعلى الجبال وهو كذلك لا يميز بين الخبيث والطيب فهو يسلكهم فى خيط واحد ليداهمهم بسيله الطامى الذى يعلو مده فيطوى الاخيار والاشرار هل الدهر هنا يعنى الزمان كما نفهم من مدلول الكلمة اللغوى ام ان الدهر قوة ذات ارادة . ان ملامح هذا الدهر الذى يجرد منه الشاعر كائنا غامضا يلتبس مع الموت فى صورة تكاد تكون متشابهة والشاعر بعد ان وجه الاتهام قاسيا لهذا الدهر يولى وجهه شطر الحياة والاحياء ليقدم لنا جواهر الحكمة الشعرية التى يبدو أن الحديث الأليم قد فجرها فى نفسه . ها هو الشاعر يتجه الى نوع من النصح بالاستقامة وكأنه ينظر فى هذه اللحظة الى ختام الحياة فيرى ان الرشد اجدر بها من الغى ما دامت تنتهى بالموت والشاعر لا يفعل ذلك بطريقة مباشرة فجة فيقع فى الوعظ الذى يقدر عليه صغار الشعراء وانما يرتفع ليرسم صورة اخلاقية ذات دلالة ومغزى فى مثل هذا المقام . انه يحاول أن يحث العابث اللاهى على الاستقامة واعمال عقله فى مايرى فى هذه الدنيا وهو موشك ان يعاقبه على هذا الغى ثم يلقى بهذه الحكمة التى اعتصرها من صميم خبراته بالحياة ومن غمار احداثها .

تجربة الدنيا وافعالها حثت اخا الزهد على زهده

ثم هو بعد ذلك ينتقل الى تصوير الاهواء التى تستولى على النفس فتجعل القلب عابدا لها وكأنها صنم من الاصنام . يلح الشاعر فى تصويره للزمان على استحضار صورة الموت :

ان زمانـــي بـــرزاياه لـــي صـــيرني أمـــرح فى قـــده
كأننـــا فى كفـــه مـــاله ينفـــق ما يختـــار من نقـــده

يجردنا ابو العـــلاء فى هذا البيت من كل ارادة امام الزمان الذى اضافه الى نفسه ثم لجـــأ الى التعميم وذلك لانه حين تحـــدث عن الرزيا كان يعرف ان حياته ليست مثل حيـــاة الاخرين فقد يكون نصيبه منها اعظم واكبر اما حين يتحدث عن غلبة الموت فهنا يستوى الجميـــع ولا ارادة لحى . ثم يخلص من هذه التأملات الحزينة الى بيت يوشك ان يرتفع بالقصيدة كلها لو لم يكن فيها بيت اخر فى مستواه .

لو عرف الانســـان مقـــداره لم يفخـــر المولى على عبـــده

هذا جوهر المساواة الانسانية فنحن امام الموت مجردين من الارداة سجناء فى اجسادنا التى يستوى فيها العبد وسيده ويلجأ ابو العلاء بعد ذلك للحديث عن عجز الانسان هذا العجز الذى يجعل منه الشاعر وسيلة لاقناعنا بالحقائق القاسية فى هذا الوجود فمن ذا الذى لا يصمت مفحما امام هذا التحدى :

امس الذى مـــر على قريـــه يعجـــز اهـــل الارض عن رده

ثم يستمر ابو العلا فى تتبع صور المساواة امام الموت هذا القاهر الغلاب فالشيخ الذى مكث طويلا فى الارض حتى بلغ ارذل العمر سواء هو والطفـــل الذى عوجل وهو فى المهـــد . والميت الذى عبر الى قبره لا يبـــالى بالذم ولا بالمدح والواحد كالحشد الكثير هذه صـــور متعددة للمساواة مســـاواة الواحد بالجميع ومســـاواة من يبـــكى على آبائه بمن يبكى على ابنائه فجوهر الفقد واحد ويذكرنا هذا البيت بنظيره فى التراث العربى .

وقالت ابكى كل قبـــر رايتـــه لقبر ثـــوى بين اللـــوى فالدكادك
فقلت لها ان الشجا يبعث الشجا دعينى فهـــذا كـــله قبر مـــالك

ولا يحاول الشاعر ان يخرجنا من الدنيا دون ان يشـــير الى هذا الجانب المضيء الذى يجعل الموت اضاءة للحياة والنهاية شحذا للبداية فهو يعود مرة اخرى الى الحديث عن قيمة الاعمال الطيبة فى الحيـــاة حيث يحث الانسان على اكتساب الافعال الخيرة هذه الافعال التى تدفع اليها السجايا الحسنة والاخلاق الكريمة ولكن الشاعر يقطع استرساله ليتحدث مرة اخرى عن طبيعة الحياة . وكيف يسعد الانسان حين يدعى له بطول العمر وليس فى الطول غير الالام التى يتجرعها . وكيف ينجو الانسان من مصيره وافضل ما فيه يغتاله وداؤه دواؤه .

فآفـــة العاشـــق من طرفـــه وآفـــة الصـــارم من حـــده

والشاعر يذكرنا بعمر الخيام فى هذه الابيات .

كم صـــــائن من تبله حـــــده ســـــلطت الارض على خـــــده
وحـــامل ثقـــل الثرى جيـــــده وكان يشـــكو الثقل من عقـــــده
ورب ظمـــــآن الى مـــــورد والموت لـــــو يعلـــــم فى ورده

ويتحدث ابو العلاء عن الفرسان الذين يتسمون بالمهارة فى الحرب ولكن هذه المهارة لا تجديهم شيئا . ويختتم قصيدته بمثل مابدأ بها انه يدرك ان الحزن مجرد ضياع للجهد والوقت والعمر فنصـــــح بالصبر والتسليم لله .

ســـــلم الى الله فـــكل الذى ســـــاءك او سرك من عنـــده

ولا ينسى بالطبع ان يشير الى الرحمة التى تؤنس الفقيد داعيا الله بان لا تقفر داره . هذه القصيدة التى تستولى الحكمة على معظـــــم ابياتها تعطينا صورة لهذا التفكير القاتم الذى كان يظلل قلب وعقل — ابى العلاء ولكن هذا التفكير ليس متجهـــا هذا الاتجـــاه العدمى رغم تسليمه بالعجز فى مواجهة الموت بل هو ينادى بالحياة الصحيحة السليمة العامرة بالقيم والاعتماد على النفس والاهتداء بالعقل . ان صورة الموت فى هذه القصيدة غالبة دون شك ولكنها مدخل للحياة ورفض للحزن الذى يقعد النفس عن طلب المعالى . واذا كان الشاعر يحاصرنا بصورة العجز فلكى يوطن النفس على احتمال المكاره وعلى بعث القيم النبيلة فى الحياة مثل المساواة والحرص على الفضيلة وفيها كذلك دفع للاتهام الذى كان يوجه الى ابى العلاء فى امر عقيدته . وكما ان هذه القصيدة يمكن ان توصف بانها عن الموت فهى كذلك قصيدة باهرة عن الحياة .

لقد انصبتني ام قيس

من شعر كعب بن سعد الغنوي

لقـــد انصبتني ام قيس تلومني ... وما لوم مثلي باطـلا بجميـــل
تقول الا يا استبق نفسك لا تكن ... تساق لغبراء المقـام دحـول
كملقى عظام او كمهلك سـالم ... ولست لميت هـالك بوصـيل
اراك امرا ارمى بنفسـك عامدا ... مرامي تغتـال الرجال بغـول
ومن لا يزل يزجـي بغيب ايابه ... يجوب ويغشى هول كل سـبيل
على قلت يوشك ردى ان يصيبه ... الى غير ادنى موضـع لمقيـل
الم تعلمي ان لا يراخـي منيتي ... قعـودي ولا يدني الوفاة رحيلي
مـع القدر الموقوف حتى يصيبني ... حمامي لو ان النفس غير عجـول
فانك والموت الذي تر هبينـه ... على ومـا عذالة بغفـول
كداعي هديل لايجاب اذا دعـا ... ولا هو يسلو عن دعـاء هديل
وذي ندب دامي الانظل قسـمته ... محافظـة بيني وبين زميلـي
وزاد رفعت الكف عنه عفـافة ... لاوثـر في زادي على اكيلـي
وشخص درات الشمس عنه براحتي ... لا نظر قبـل الليـل اين نزولي
ومنشق اعطـاف القميص دعوته ... وقد سد جوز الليل كل سـبيل
فقلت له : قد طال نومك فارتحل ... وما ذاق طعم النوم غير قليـل
سحيرا واعجاز النجوم كانهـا ... سباطيط ركب بالفـلاه نزول
ومن لا ينل حتى يسـد خلاله ... يجد شـهوات النفس غير قليل
وعوراء قد قيلت فلم استمع لهـا ... وما الكلمة العوراء لي بقبـول
وما انا للشيء الذي ليس نافعي ... ويغضب مني صـاحبي بقـؤول
واعرض عن مولاي لوشئت سبني ... وما كل يوم حلمـه بأصـيل
ولن يلبث الجهـال ان يتهضموا ... اخا الحلم مالم يستعن بجهـول
واذكر ايام العشـيرة بعد مـا ... اميـل غيظ الصـدر كل مميـل
ولست بمبد للرجـال سريرتي ... ومـا انا عن اسرارهم بسؤول
وقوم يجرون الثيـاب كانهـم ... نشـاوى وقد نبهتهم لرحيـل
وقد نفر الليل النهـار والبسـت ... سماوة جون مجنح لأصـيل

شاعر هذه القصيدة ليس واحدا من اعلام الشعراء الذين سارت بذكرهم الركبان واحتفـل بهم النقاد وروت لهم كتب الادب الروايات عن حياتهم وشعرهم وانما هو شاعر فرض اسمه على الكتب المتخصصة في تمحيص الشعر العربي مثل بلوغ الارب والسـمط والاغاني والخزانة .
انه كعب بن سعد الغنوي احد بني سالم بن عبيد بن سعد بن كعب ينتهي نسبه الى قيس بن عيلان وبعض الكتب ترفع نسبه الى الجد الاخـير وبعضها يوجز في ايراد اسماء الاجداد وكعب هذا اغلب عليه لقب كعب الامثال « لكثرة ما في شعره من الامثال وفي الامالي انه شاعرا اسلامي عاش

وابدع شعره فى العصر الاموى وهذا ما يؤكده الطابع العام لهذه القصيده. التى تكاد تنتمى بقيمها الفنية والموضـــــوعية الى العصر الجـاهلى . ولما كان العصر الاموىانما هو رجعة فنية كبيرة الىالصورة الفنيةالتى كان عليها الشعر الجاهلى فان هذه القصيدة لا تصبح غريبة فى عصرها الذى قيلت فيه وقد وردت هذه القصيدة فى مختارات ابن سعيد عبد الملك » ابن قريب بن عبد الملك المعروف بالاصمعى وهى المختـارات التى تحمل اسم الاصمعيات نسبة الى جامعها والنظرة الشاملة بعد القراءة المتعمقة» للقصيدة تلحظ عناصر الاتجاهات الفكرية والفنية والفلسفية الاساســية التى ازدهرت فى الشعر الجاهلى وحاول الشعر الاموى الارتداد اليهـــا باســلوب يستوعب خبرة التجربة الاســلامية الكبيرة التى غيرت النطاق الفكرى الذى كان سائدا كما خلقت معايير جديدة فى مجـــال الاخلاق والعلاقات الانسانية وبناء المجتمع ذاته . فالاطار العام لقصيدة كعب بن سعد الغنوى يمت للشعر الجاهلى بنسب اصيل يظهر جليا فى هذه الانفاس التى تعيد الينا الاتجاه الى الحكمة الذى برز فيه واقام اسسه الاولى زهير بن ابى سلمى : فالحكمة كمفهوم انسانى يمتص خبرة عصر باكمله تنتشر فى هذه القصيدة الرائعة كما تعطى القصيدة كذلك ايحـــاء قويا بصلتها المباشرة بهذا العـالم الذى يحفـــل بالمغامرة والمخاطرة عالم الصعاليك الفسيح الذى يحفه الغبار وتكمن فيه الاخطار . عالم يصبح فيه التخلى عن الاحساس بالأمن هو أعظم الضمانات للأمن .

يذكرنا بمخاطرة عروة بن الورد حين يقول :

ومن يك مثـلى ذا عيـال ومقترا من المـال يطرح نفسه كل مطرح

ولكن المخاطرة هنا فى هذه القصيدة ربما كانت من نوع اكثر ترفا من مخاطرة الصعاليك الذين دفعهم نبذ المجتمع لهم الى ركوب الاخطار واصطناع الاسفار والغزوات . انها مخاطرة الهدف منها الحفـاظ على كبرياء الشاعر مخاطرة لاعلاء شأن الذات وليس لدفعها درجات فى سلم الحياة الاجتماعية . وتبرز فى القصيدة هذه القدرية الحتمية التى كان شعر طرفه بن العبد رائدا فى تصويرها حين يقول :

الا ايهـذا الزاجرى احضر الوغى وان اشهد اللذات هل انت مخلدى
أرى الموت أعداد النفوس ولا ارى بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غـد

هذه الحتمية التى جعلت من الحياة اختيار قاسيا بين اعدام الذات فى اخضاعها التام للعرف والمواضعات والحتمية وبين اغتنام الحياة فوق لهب التمرد وتحت سياط الاحتجاج الاجتماعى واستنكاره وليس ثمة شك فى ان القصيدة « لقد انصبتى ام قيس » تنفرد بتصوير تجربة اخرى بالغة التفرد والذاتية وهى لا تلتقى مع تجارب الصعاليك او زهير بن ابن سلمى او طرفة بن العبد الا لتفترق وهنا عظمة اى شاعر اصيل . ان الشاعر الحقيقى هو حفيد اسلافه فهو يذكرك باجداده الشعراء فى الوقت الذى يعتز بوجهه هو وموهبته الذاتية التى تميزه عنهم . وهكذا ترى صـــورة

جلية لنمط الصياغة الجاهلية وعصر بنى امية يذكرنا بزهير وطرفة وغيرهم ولكن الذى يبقى هو صدق انفاس بن سعد الغنوى فى هذه القصيدة الحارة الصادقة التى تضرب بجذورها الفنية والفكرية والاخلاقية فى تراث القصيدة العربيه . وقد اختار الشاعر للقصيدة بحر الطويل فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن ليعبر من خلاله عن هذه الموجات المشحونة بالتوتر والتأمل والحركة . انه بحر واسع الاطراف هادىء كالصحراء متموج بطىء الايقاع يعطى للشاعر فرصة حامية للتفكير والتأمل . وهو بحر شاع استعماله فى العصر الجاهلى . فهو فخم جليل ولكنه لا يترفع عن الحركة والتدافع اذا فاضت بالشاعر هواجسه ، وتبدا القصيده بطهور « ام قيس » لائمة عاتبة محذرة للشاعر ومنذرة بالاذى الذى يمكن ان يلحق الشاعر من جراء تمسكه بفضائله كفارس شجاع فمن هى ام قيس هذه ؟ انها امراة كثيرة الظهور فى القصائد الجاهلية والاموية ولكن باسماء مختلفة وهى قد تكون زوجة الشاعر المحبة له الخائفة عليه وقد تكون جزاء من هذا التقليد الفنى الذى تفتتح به القصائد . فكما اننا نعثر دائما فى الشعر الجاهلى وغيره على هذا الخليل الذى يحرص الشاعر على اصطحابه فى كل رحلاته فاننا نجد كذلك امراة مختلفة الاسماء والاوضاع والمسافة من الشاعر ولكنها فى معظم الاحيان امراة عاتبة مشفقة على الشاعر مما يجلبه على نفسه ، انها مرة تكون اميمة التى يخاطبها ابو ذئيب الهذلى حين يقول :

قالت اميمة مالجسمك شاحبا منذ ابتذلت ومثل مالك ينفسع

وقد تكون زوجة مشفقة كزوجة عروة بن الورد التى تحذره من المخاطرة بنفسه طلبا للغنى فيرد عليها :

دعينى للغنى اسعى فانى رايت الناس شرهم الفقير

وقد نجدها من الجانب المناوىء كما فى قصيدة السموأل بن عادياء حين يقول :

تعيرنى انا قليل عديدنا فقلت لها ان الكرام قليل

فام قيس اذن فى قصيدة كعب بن سعد الغنوى قد تكون زوجة او امـا او صديقه او اختراعا فنيا يجرى به على سنة القصيدة العربية التقليدية وقد تكون تجريدا من نفسه لهذه الشخصية الخيالية اراد بها توجيه السؤال الى نفسه واللوم لها على استهانته بالمخاطر التى يعرض نفسه لهـا . ويبدو ان ام قيس هى امراة حقيقية وهذا واضح من قوله «لقد انصبتنى» فالافتتاح بلقد يفيد التحقيق وانصبته اتعبته لانها اكثرت من لومه وعتابه وتحذيره ويبدو انها استخدمت كل ما تستخدمه الانثى المحبة من وسائل الضغط لتمنعه من مواصلة مغامراته . وكان من الممكن ان يبدا الشاعر قصيدته بلومها مباشرة من خلال ندائها له ان يرحم نفسه او يجنبهـا

المخاطر ولكنه آثر أن يفتتح القصيدة بالاعلان عن تعبه وضيقه من هذا اللوم الشديد على نفسه . وهو يعتبر هذا اللوم مجافيا للصواب والحق . لا لانه وديع يؤثر السلامة فيكون اللوم فى غير موضعه بل لان لوم مثله يعد باطلا فمثله لا يلام لانه لا يرتكب جرما اذا كانت مخاطراته من اجل اكتساب الشرف والذود عن الاهل والعرض . انه يستنكر هذا اللوم لانه لا يليق بمثله فهذا اللوم ليس جميلا وقد آثران يترفق بهذه المراة التى يعرف جيدا ان لومها يأتى من اشفاقها عليه ومحبتها فانتقى وصفا مخففا لهذا اللوم الذى أعلن هو أنه قد أتعبه فقال بأن هذا اللوم غير جميل وكان يمكن ان يستخدم لفظا اكثر غلظة لولا ان العلاقة التى تربطه باللائمة علاقة حميمة وهدفها منه هو المحافظة عليه هو اذن قد اعلن فى هذا البيت تقريبا عن تقرير موقف ام قيس منه واحساسه وتقديره لهذه الموقف ووقعه عليه ثم اكد موقفه من هذا اللوم وحكمه عليه . فكأنه فى الواقع قد لخص فى بيت واحد القصيدة كلها : وقوع اللوم — ورده عليه مع التركيز على التأثير وابراز شخصيته فهو بيت جامع او هوبيت القصيدة ومعجزته انه فى كلمات قليلة قد قال كل شىء تقريبا بعد هذا البيت الذى يبدو ان الشاعر قد اراد به التنفيس عن نفسه ندخل الى صميم العتاب الذى وجهته ام قيس الى الشاعر . وهو يبدأ بهذا النداء :

تقول الا يا استبق نفسك لا تكن تساق لغبراء المقام دحول

وحذف المنادى فى هذا البيت يؤكد امتلاء نفس وقلب هذه المراة بهذا الشاعر المغامر فهى غير محتاجة الى ان تشير اليه او تعلن اسمه فهى تحس به ملء كيانها وكأنها تتعجل هذا الراحل المخاطر تريد ان تمنعه مما هو ذاهب اليه فكأن الحذف هنا لاختصار الزمن والذى تريده هو انتسرع بالنصح والعتاب لعله ان ينزجر فيقلع ما يهمها الان هو الهدف وعليها ان تصل اليه فى اسرع زمن ممكن وقولها تساق لغبراء المقام دحول : كناية عن القبر . وهى تتعمد هذا التصوير القبيح للقبر حيث شبهته بالبئر المغيره التى تآكلت جوانبها وصارت لها فجوات كالكهف وهو مشهد موحش مخيف تريد من وراء تصويرها هذا أن تردع شاعرها وقولها « تساق » يكشف عن ايمانها بحتمية الموت وان كان هذا التعبير : لا تكن تساق مركب من الارادة ومن الاجبار فهى تنهاه عن السير الى حتمية مصيره . هى تريد فى الواقع ان توضح ان الموت حتمية يساق له المرء سوقا وهذه طبيعة الموت الغلابة ولكنها فى نفس الوقت تؤكد ان شاعرها يلعب دورا لا ارادياً فى السير الى حتفه ومن هنا فهى تنهاه وتزجره بعد أن تجسد أمامه صورة القبر تجسيدا مخيفا مفزعا تنتقل الى تصويره هو بعد الموت كما مهملا لا قيمة له . بعد ذلك تأخذها عليه الشفقة فتدعو له بالنجاة من هذا المصير القاسى . ثم تستمر فى توجيه الخطاب والعتاب فهو يرمى بنفسه عامداً الى حيث الاقدار القاسية التى تغتال الرجال . وهى تعترف ان حياة المرء مشرفة دائما على الهلاك يوشك الموت ان يصيب الانسان فيبعث به الى مكان بعيد ويستخدم كلمة مقيل للعالم الاخر كأنه مكان الراحة يصل اليه الانسان بعد الموت

وبعد هذا العتاب المشفق الذى يستخدم الحنوتارة والتخويف تارة تدخل القصيدة الى افق جديد وهنا تتبدى لنا شمس الحقيقة الساطعة وسط ظلام الحيرة والشكوك المريرة . يصدر الشاعر حكمه الصارم بعد ان اختبر الحياة والموت . فيجيء هذا الحكم مليئا حتى الحافة بالمرارة التى تشرف بالمرء على يأس من كل شيء . ان القدر الذى احكم خيوط المصير لا يجدى معه القعود او الرحيل : الم تعلمى ان لايراخى منيتى . قعودى ولا يدنى الوفاة رحيلى ويالها من دقة فى التعبير فهو هنا يقيم نوعا من المقابلة بين يراخى ويدنى وبين القعود والرحيل . فهو هنا يستخدم كلمة التراخى للتعبير عن الموت ان المساومة اذن ليست الا على قليل من الزمن وحتى هذا القليل ميئوس تماما من الحصول عليه عن طريق القعود او الرحيل . ولا شك ان نفور الشاعر من التخاذل وايثار السلامة قد وجد التعبير المثالى عنه فى كلمة القعود هذه الكلمة التى توحى بالتكاسل وضعف الهمة والسقوط . ثم يأتى هذا البيت الحاسم فى تقدير موقف هذا الفارس الشجاع الذى يخاطر وهو يعلم ان القدر ممسك بالخيوط كلها تماما كما يقول طرفة بن العبد .

لعمرك ان الموت ما اخطأ لكطول المرخى وثنياه باليد

الشاعر يعلن وقوفه مع القدر . ياله من تضامن يكشف عن جسارة الفارس كما يكشف فى نفس الوقت عن هذا التقبل الذى تخلقه البصيرة فى وجدان هؤلاء الذين وهبوا الحكمة وشجاعة النظر الثابت فى قلب الاشياء . وكأنه شديد الحماس لهذا القدر الموقوف عليه : اى قدره الخاص . قدره وحده انه يتضامن معه ويتبدى هذا جليا فى البدء بالحرف مع وكأنه حذف كلمة « انا » لاهتمامه بالمعية اكثر من اهتمامه بتأكيد ذاته هو يعلن تضامنه مع قدره الخاص فى الحياة والموت حتى يصيبه الحمام ثم يوضح لها موقفها منه وهو موقف يرى انه لا جدوى من ورائه لانه لن يغير من طباعه ولا من قدره ولا من ارادته . هو يقول لها انها متضامنة مع الموت ضده وان موقفها هذا عبث كهؤلاء الذين يدعون هديل — والهديل فرخ الحمام تزعم الاعراب انه فرخ كان على عهد نوح فمات ضيعة وعطشا فيقولون انه ليس من حمامة الا وهى تبكى عليه . ومن هنا سمى بكاء الحمام هديلا . وهذا تفسير اسطورى ولكن الشاعر استعار هذا الموقف الخيالى للتعبير عن استحالة انثنائه عن عزمه أو رجوعه عن فروسيته .

كداعى هديل لايجاب اذا دعا ولا هو يسلو عن دعاء هديل

وبعد هذا البيت تنتقل القصيدة الى مرحلة أخرى هى مرحلة اقرب الى الفخر منها الى الدفاع عن النفس فهو يعطى صورة لصفاته النادرة واخلاقه الرفيعة هذه الصفات التى تأتى الشجاعة فى مقدمتها ثم الحكمة وقبول الواقع ببصيرة نافذة . يتحدث الشاعر عن وفائه ومودته وعفته وكرمه .

وذى ندب دامى الا ظـل قسـمته　　محـافظة بينـى وبين زميـلى
وزاد رفعت الـكف عنه عفـافة　　لاوثـر فى زادى على اكيـلى
وشخص درات الشمس عنه براحتى　　لانظـر قبـل الليـل اين نزولى

وكل هذه الصور انما ليؤكد بها الشاعر كرمه وايثاره لغيره وحرصه على اصدقائه فهو رجل يحمى الغريب ويأوى الطريد الى جانب هذه الصور البليغة . فهو يصور النجوم بقطيع بقر الوحش وهى تهبط من التلال .

ومنشـق اعطاف القميص دعوته　　وقد سـد جوز الليل كل سـبيل
فقلت له قد طـال نومك فارتحـل　　وما ذاق طعم النوم غـير قليـل
سحيرا واعجاز النجوم كانهـا　　صـوارا تـدلى من سـواء اميل

وبعد أن يعرض لنا الشاعر صورا من كرمه يبرهن على ان الكرم لا يكون من فضل المال ولا مما يبقى بعد الاكتفاء فالكريم يجود بما عنده ولو كان فى حاجة اليه . وهو هنا ينبه الى خدعة تلجأ اليها نفس البخيل حين يقول لنفسه لابد من سد حاجتى أولا قبل ان اعطى الآخرين فالذى ينتظر شبع النفس حتى يجود بماله سيجد ان حاجته لا تنقضى .

ومن لاينـل حتى يسـد خـلاله　　يجد شـهوات النفس غير قليـل

ثم يتابع الشاعر بعد ذلك عرض صفاته العـالية فهو لا يقبل القبيح من الكلام بل انه يؤكد ترفعه حتى عن سماع هذه الكلمات القبيحة فهو لا يقبل مثل هذا القبح . وهذه عفة وترفع وكبرياء بل هو نموذج للكياسة والحذق والحرص على مودة الاخرين فهو لا يثرثر بما يغضب صاحبه . وهو يترفع عن الجهال فلا يترك نفسه يتردى الى جهالتهم فاذا صور علاقته بأهله وجدناه حريصا غاية الحرص على هذه العشيرة التى تملك عليه جوانب نفسه فهو لا ينسى أهله ابدا حتى لو اسـاؤا اليه بل يعمد الى التـأمل والصبر والمفاضلة بين الاحتمالات .

واذكر ايام العشـيرة بعد ما　　اميل غيـظ الصدر كل مميـل

وهو رجل حكيم لا يسرع بقطع الاسباب بينه وبين أهله او بينه وبين غيره من الناس رغم انه ليس غرا ساذجا فهو يعرف ايضا أن الناس ليسوا ملائكة وان الحذر منهم شيمة العاقل اللبيب فهو لا يترك اسراره تسيل من شفتيه لأنه يعرف قيمة هذه الاسرار ولا يظهر اعماقه امام الاخرين خوفا من أن ينهشوا هذه الاعماق الدفينة .

أولست بمبد للرجـال سريرتى　　وما أنا عن اسرارهم بسـؤول

انه يحترم حقوق الآخرين كذلك فى الحفـاظ على اسرارهم وسرائرهم . وهذه هى الفروسية والنبل . لا يبحث لاحد من نقطة ضعف . انه يحمى

نفسه بشرف وكرامة وتدفعه فروسيته ونبله الى الاعتراف بنفس الحق للرجال الاخرين . وهذه صوره من صور الحرية والمساواة ثم يختتم الشاعر قصيدته بالحديث عن مخاطرانه بنفسه واسفاره وما اجمل تعبيره .

وقد نفر الليل النهار والبست سماوة جون مجنح لاصيل

هو يريد ان يقول ان الليل يغالب النهار ويدفعه الى الخروج من الكون فها هى الدنيا تلبس سماء اقرب الى لون المساء عند الاصيل . هذه القصيده الرائعة لكعب بن سعد الغنوى تعد دستورا راقيا لطراز من الرجال جديرين بخلقهم وصفاتهم ان يصنعوا عالما فاضلا . فالشاعر وهو يتحدث عن نفسه لا يسقط فى الفخر الذى ينفر النفس منه وانما هو رجل يتحدث فى لهجة اقرب الى تطهير الذات منها الى الاستعلاء فهو لا يذكر الا الصفات التي ينبغى أن تكون دستور الانسان المثالى لقد جمع الى الشجاعة الحكمة والى العفة الكرم والى احترام النفس احترام الاخرين والى الولاء للعشيرة الخبرة بالرجال ودخائلهم ولو انسان عن نفسه هذه الصفات لعددناه متفاخرا مباهيا مبالغا . ولكنك تخرج من القصيدة معجبا بهذه الصفات فضلا عن تجسدها فى الشاعر او عدم تجسدها وغير عابىء بصدقه او مبالغاته فالحقيقة ان الصياغة الرفيعة التى صيغت بها القصيدة تؤكد صدقها من ناحية وتؤكد بلاغتها النادرة من ناحية اخرى فهى موجزة شديدة التركيز . ولكنها تضم كنزا ثمينا من القيم الاخلاقية والانسانية والاجتماعية الرفيعة . واذا كان الشاعر قد بدأ بالشجاعة والتسليم للقدر فقد اعطانا المفاتيح الاساسية للشخصية السليمة . قوة القلب وقوة العقل . هذه قصيدة شاعر بدوى اسمه كعب بن سعد الغنوى ولكنها تقف بما تحفظه فى ابياتها من كنوز مع روائع الشعر فى كل العصور .

شاعر يرثى نفسه

لمالك بن الريب التميمى

الا ليت شعرى هل ابيتن ليلة ... بجنب الغضى ازجى القلاص النواجيا
فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه ... وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
لقد كان فى أهل الغضى لو دنا الغضى ... مزار ولكن الغضى ليس دانيا
الم ترنى بعت الضلالة بالهدى ... واصبحت فى جيش ابن عفان غازيا
واصبحت فى ارض الاعادى بعيد ما ... ارانى عن ارض الاعادى ناصيا
دعانى الهوى من اهل اود وصحبتى ... بذى الطبسين فالتفت ورائيا
اجبت الهوى لما دعانى بزفرة ... تقنعت منها ، ان الام ، ردائيا
اقول وقد حالت قرى الكرد دوننا ... جزى الله عمرا خير ماكان جازيا
ان الله يرجعنى من الغزو لا ارى ... وان قل مالى طالبا ما ورائيا
تقول ابنتى لما رأت طول رحلتى ... سفارك هذا تاركى لا ابا ليا
لعمرى ،لئن غالت خراسان هامتى ... لقد كنت عن بابى خراسان نائيا
فان انج من بابى خراسان لا اعد ... اليها وان منيتمونى الامانيا
فلله درى ، يوم اترك طائعا ... بنى بأعلى الرقمتين وماليا
ودر الظباء السانحات عشية ... يخبرن — انى هالك — من ورائيا
ودر كبيرى اللذين كلاهما ... على شفيق ناصح لو نهانيا
ودر الرجال الشاهدين تفتكى ... بأمرى الا يقصروا من وثاقيا
ودر الهوى من حيث يدعو صحابه ... ودر لجاجاتى ودر انتهائيا
تذكرت من يبكى على فلم اجد ... سوى السيف والرمح الردينى باكيا
واشقر محبوك يجر لجامه ... الى الماء لم يترك له الماء ساقيا
ولكن باكناف السمينة نسوة ... عزيز عليهن العشية مابيا
صريع على ايدى الرجال بقفرة ... يسوون لحدى حيث حم قضائيا
ولما تراءت عند مرو منيتى ... وخل بها جسمى وحانت وفاتيا
اقولى لاصحابى ارفعونى فانه ... يقر بعينى أن سهيل بداليا
فياصاحبى رحلى دنا الموت فانزلا ... برابية .. انى مقيم لياليا
اقيما على اليوم او بعض ليلة ... ولا تعجلانى قد تبين شانيا
وقوما اذا ما استل روحى فهيئا ... لى السدر والاكفان عند فنائيا
وخطا باطراف الاسنة مضجعى ... وردا على عينى فضل ردائيا
ولا تحسدا انى بارك الله فيكما ... من الارض ذات العرض ان توسعاليا
خذانى فجرانى بيردى انيكما ... فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا
وقد كنت عطافا اذا الخيل ادبرت ... سريعا الى الهيجا الى من دعانيا
وقد كنت صبارا على القرن فى الوغى ... وعن شتمى ابن العم والجار وانيا
فطورا ترانى فى ظلال ونعمة ... ويوما ترانى والعتاق ركابيا
ويوما ترانى فى رحى مستديرة ... تخرق اطراف الرماح ثيابيا
وقوما على بر السمينة اسمعا ... بها الغر والبيض الحسان الروانيا

بانكمـــا خليتمـــانى بقفـرة ... تهيل على الريح فيهـا السوافيا
ولا تنسيا عهدى خليلى بعد مـا ... تقطع اوصـالى وتبلى عظاميـا
فداة غد بالهف نفسى على غـد ... ولن يعـدم الميراث منى الموانيـا
يقولون لا تبعد وهـم يدفنونني ... وأين مـكان البعد الا مكانيـا
ولن يعدم الوالون شيئا يصيبهم ... اذا أدلجوا عنى واصبحت ثاويا
واصـبح مالـى من طريف وتالد ... لغيرى وكان المال بالامس ماليـا
فياليت شعرى هل تغيرت الرحى ... رحى المثل او امست بفلج كما هيا
اذا الحى حلوهـا جميعا وانزلوا ... بها بقرا حـم العيون سـواجيا
وهل اترك العيس المبالى بالضحى ... بركبانهـا تعلو المتان الديافيـا
اذا عصـب الركبـان بين عنيزة ... وبولان عاجوا المبقيات النواجيـا
فياليت شعرى هل بكت أم مالك ... كما كنت لو عالوا بنعيك باكيـا
اذا مت فاعتادى القبور فسلمى ... على الرمس اسقيت السحاب الغواديا
على جدث قد جرت الريح فوقه ... ترابا كسحق المرنبانى هابيـا
رهينة احجـار وترب تضمنت ... قراراتها منى العظام البواليـا
فيا صـاحبى ، اما عرضت فبلغن ... بنى مازن والريب ان لا تلاقيـا
وعطل قلوصى فى الركاب فانهـا ... ستغلق اكبادا وتبكى بواكيـا
وابصرت نـار المازنيات موهنـا ... بعلياء يثنى دونها الطرف وانيـا
بعيـد الـدار شـاو بقفـرة ... يد الدهر ، معروفا بأن لا تدانيـا
أقلب طرفى حـول رحلى فلا ارى ... به من عيون المؤنسـات مراعيـا
وبالرمال منا نسوة لو شـهدننى ... بكين وفدين الطبيـب المداويـا
وما كان عهد الرمل عندى واهله ... ذميما ولاودعت بالرمل قاليـا
فمنهن أمـى وابنتاهـا وخـالتى ... وباكيـة اخرى تهيج البواكيـا

* * *

شاعر هذه القصيدة الرائعة هو مالك بن الريب التميمى من شعراء الاسلام فى بداية العهد الأموى . واخباره القليلة والمتناثرة تؤكد انه كان شجاعا فاتكا وقاطع طريق على نهج صعاليك ذلك الزمان وهو يتحدث فى شعره عن شجاعته ومواقعه بل يعترف صراحة فى احاديثه انه قاطع طريق وكان له رفقة من اصحابه يسومون الناس شرا فطلبهم مروان بن الحكم وهو عامل على المدينة فهربوا وكتب الى الحارث بن حاطب الجمحى وهو عامله على بنى عمر بن حنظلة يطلبهم فهربوا منه ولكن الحارث استطاع ان يقبض على مالك بن الريب واصحابه وبينما يسوقهم جند الحارث استطاع مالك لخفة حركته وسرعته ان يفلت منهم ويقتلهم ويخلص رفاقه ثم هربوا الى البحرين ثم الى فارس وكان سعيد بن عثمان بن عفان والياً فى ذلك الوقت على خراسان وقد بلغه ما يشيعه مالك بن الريب واصحابه من الفزع والرعب فى قلوب الناس فلقى مالك ورآه من أجمل الناس وجها واحسنهم ثيابا فأعجب سعيدا فقال له : مالك ويحك تفسد نفسك بقطع الطريق وما يدعوك الى ما يبلغنى عنك من العبث والفساد وفيك هذا الفضل قال يدعونى اليه العجز عن المعالى ومساواة ذوى المروءات ومكافاة الاخوان قال فان انا اغنيتك واستصحبتك ، اتكف عما تفعل ؟ قال اى والله ايها

الامير اكف كفا لم يكف احد احسن منه فاستصحبه واجرى له خمسمائة درهم فى كل شهر . ومن الواضح ان مالك بن الريب بالهيئة واللسان الذين كان عليهما لا يجعلان منه مجرد قاطع طريق او لص وانما هو فارس شجاع يرى ان ما هو متاح له من الاعمال لا يكافىء طموحه الى المعالى فراى فى قطع الطريق نوعا من الصراع الفردى ضد عالم لا يهمه منه الا ان يجد فيه حظا موفورا من الكبرياء وعلو الشأن ويبدو انه كان يشعر بان هذا العمل يخالف سنة المجتمع الذى نشا فيه بل ويتنافى مع الدين الذى ارتضاه والذى كان الايمان به واضحا فى شعره ومن هنا فانه قد انتهز الفرصة التى عرضت عليه لاظهار شجاعة حقيقية فى ميدان الجهاد من شانها أن تكسبه المعالى التى كان يتوق اليها وقد ارتاح لهذا الاختيار لانه يلائم روحه ومزاجه فهو اذن فارس ضل طريقة ثم اهتدى الى هذه الطريق فبادر الى انتهاجه وكتب الادب والاغانى خاصة تلتمس فى حياة مالك من الاحداث والقصص الغرامية التى تناسب المجتمع الذى كان قائما فى العصر الذى وضع فيه كتاب الاغانى فهم يقولون ان سبب رحيل مالك بن الريب الى فارس حيث لقى سعيد بن عثمان بن عفان هو الخجل من الهزيمة فى الحب امام توبة بة الحمير فيروون أن مالك قد مر بليلى الأخيلية فجلس اليها يحادثها طويلا وانشدها فاقبلت عليه واعجبت به حتى طمع فى وصلها ، ثم اذا هو بفتى قد جاء اليها كانه نصل سيف فجلس اليها فاعرضت عن مالك وتهاونت به واقبلت على صاحبها مليا من نهارها فغاظه ذلك من فعلها واقبل على الرجل فقال من انت قال توبة بن الحمير فقال هل لك فى المصارعة قال وما دعاك الى ذلك وانت ضيفنا وجارنا قال : لابد منه فظن أن ذلك لخوفه منه فازداد لجاجا فقام توبة فصرعه فخجل وقال لا اقيم فى بلد العرب ابدا ويبدو أن القصة مفتعلة ومصنوعة لتسلية المجتمع العباسى . وحين هم مالك بن الريب بالذهاب مع سعيد ابن عثمان بن عفان تعلقت ابنته بثوبه وبكت وقالت له اخشى أن يطول سفرك او يحول الموت بيننا فلا نلتقى فبكى وانشا يقول :

ولقد قلت لابنتى وهى تبكى ... بدخيل الهموم قلبا كئيبا
وهى تذرى من الدموع على الخدين ... من لوعة الفراق غروبا
عبرات يكدن يحرقن ماجز ... ن به أويد عن فيه ندوبا
حذر الحتف أن يصيب اباها ... ويلاقى فى غير اهل شعوبا
اسكنى قد حززت بالدمع قلبى ... طالما حز دمعكن القلوبا
فسلى الله يدفع عنى ... ريب ما تحذرين حتى اؤوبا
ليس شىء يشاؤه ذو المعالى ... بعزيز عليه فادعى المحيبا
ودعى أن تقطعى الآن قلبى ... او ترين فى رحلتى تعذيبا
انا فى قبضة الاله اذا كنت بعيدا ... او كنت منك قريبا
كم رأينا امرا اتى من بعيد ... ومقيما على الفراش اصيبا
فدعينى من انتحابك انى ... لا ابالى اذا اعتزمت النحيبا
حسبى الله ثم قربت للسير ... علاوة انجب بها مركوبا

ـــ ان هذه الأبيـــات القليلة تؤكد ايمـــان مالك بن الريب بالله فهو حسبه وكافية وهو فى قبضة الاله سواء فى قربه من ابنته أو بعده عنها فهو يؤكد لها انه شديد العزيمة لاتثنيه الدموع وفعلا رحل الشـــــاعر مع الأمير ســـــعيد ويبدو انه قد اتم مهمته العسكرية على افضل وجه وخلال العودة من المعارك الى ديار أهلهفاجاه المرضوربما كانقد اصيبفىمعركته تلك والرواة يذكرون المرض لا الاصابة فلما اشرف على الموت تخلف معه رجلان من قومه بنى تميم وكان ميلاد هذه القصيدة الشهيرة التى مات بعدها فى الموقعالذى ثقلت عليه فيه العلة ويروى الاصفهانى عن ابى عبيدة ان مالك بن الريب لم يقل من قصيدته الا ثلاثة عشر بيتا والباقى منحول ولده عليه الناس :

داب المؤرخون للادب والادباء على وصف قصيدة مالك بن الريب بانها فى رثاء نفسه او شاعر يرثى نفسه . ونحن نعرف أن الرثاء هو التفجع على الموتى وذكر مناقبهم اما اذا طالعنا هذه القصيدة ناننا نرى فيها صورة درامية لموقف الشاعر من الموتبعد أن تاكد من حتمية مصيره الفاجع وهى بموضوعها تعبر عن الموقف النموذجى للتجربة الشعرية حيث يواجـــــه الشاعر المستحيل والمطلق معا فبين ارادة الحياة وحتمية الموت تنصهر كل عواطف الشاعر وافكاره وتتفجر من هذا الوضع المأساوى صـــــور القصيدة التى تعبر فى صدق نادر عن حب طاغ للحياة ولا يكاد اسم الرثاء يصح وصفا لها وانما هى قصيدة « وداع للحياة » هذا الوداع القاسى ينطوى على الكثير من دلالات الوجود بما فيه من منطق ولا معقولية . بما فيه من سعادة وحزن . وتدور القصيدة بصـــورها وافكارهـــا ودموعها ونشيج موسيقاها حول اركان ثلاثةهىصورة الوطنوفجيعةالاهلوالاشفاق على النفس من الموت وقف الشاعر وصاحباه عند مرو فى خراسان بعد أن ثقلت عليه العلة وايقن من الموت . والمكان يستثير المكان . فكما ان الحاح صورة الموت قد فجرت صورةالحياة فانصورة المكانالبعيد الذىوجد نفسه فيه قد اظهرت صـــورة المـــكان ـــ الوطن ـــ القريب من النفس والقلب والوجدان ـــ يبدأ الشاعر القصيدة بتصوير وطنه السمينة ـــ حيث يكثر شجر الغضا فى هذا الوادى الذى يقترب من اليمن لانه يذكر سهيلا كمرشد اليه وسهيل نجم يطل من ناحية اليمن كما يقولون وعجيب ان يذكر الشاعر وطنه بشجر الغضا ـــ وهو شجر خشبه من اصلب الخشب وجمره يبقى مدة طويلة والشـــاعر يبدأ بمناجاته لمطابقة دلالة هذا الشـــجر لمعنيين يترددان فى نفس الشاعر هما معنى الحياة والشجر رمز جميل للحيـــاة ومعنى آخر هو دوام اتقاد الحسرة فى نفسه على هذا الهلاك المبكر . وما أرق الشاعر وهو يتمنىأنيبيتليلة بجنبشجر الغضا اىيتمنىليلة فىوطنه يواصل حياته العادية وليت الغضى قد ساير الركب قليلا حتى لا تنقطع عنه صورة الوطن فقد كان شيئا محببا الى نفسه أن يزور هذا الوادى الطيب لو كان قريبا منه ولكنه ليس بالقريب الان ليزار . وبعد أن تلمع صورة الوطن فى ذاكرة تجاهد لتعرض امام الشاعر آخر مشاهد الحياة

يقسو على نفسه باللوم والتقريع لانه تبع سعيد بن عثمان بن عفان فى هذه الرحلة التى اودت بحياته وغربته عن دياره لقد بدد ما لديه بعد ان ضل ضلالا شديدا وباع الهدى واصبح مقاتلا فى هذا الجيش . والشاعر لا يحدثنا عن هذه الموقعة التى كان فيها ربما لانه يرى أن ما يواجهه اخطر من أن ينشغل بغيره . ويترك ذاكرته تنساق وراء الرجاء والتمنى وخيالات الأوهام التى يدرك هو انها غير مجدية وكأنه يحاول التكفير عن ذنبه فيؤكد انه لو عاد الى أهله من هذا السفر فسوف لا يعود الى ذلك مرة آخرى . وبين مشاهد الوطن وتفزيع النفس والعزم والتمنى تلوح صورة ابنته التى تقول له ان سفرك هذا يتركنى بلا أب يرعانى . وكأن هذا الصوت هو الذى يغذى فى نفسه الاحساس بالذنب فيعزم على عدم العودة الى خراسان مرة آخرى — وكأنه يهجس لنفسه ما كان ابعدنى عن بابى خراسان فما الذى اتى بى الى هنا . وكما تتناثر صورة الوطن فى القصيدة كذلك تتناثر صورة الاهل . وهو يحدد أهله بأبيه وأمه وابنتيه وزوجته هؤلاء هم كل اسرته التى يحن اليها ويكاد يجن شوقا اليها . وهو يدعو لنفسه وأهله وقومه ونساء قومه ومشاعر الحب التى يدخرها لهم يدعو لكل ذلك وهؤلاء بالخير — وهم يثيرون فى نفسه بقوة صورة نفسه الوحيدة المغتربة وكما يطرح النقيض نقيضه فى القصيدة كلها فان صورة الجمع تطرح صورة المفرد وصورة الأهل تستدعى صورة الغربة .

تذكرت من يبكى على فلم اجد سوى السيف والرمح الرديني باكيا

— انه يشفق على نفسه اشفاقا رقيقا يتذكر معه صورة الوحشة التى التى هو عليها فليس ثمة من قريب منه يعرف ما هو عليه الاسيفه ورمحه وحصانه الاشقر القوى الذى يسعى الى الماء للشرب وحيدا بعد ان اخذ الموت ساقيه هؤلاء هم رفقته الذين يقهرهم بكاءهم عليه عند موته . ولا تفوتنا صورة الاشفاق على الجواد أيضا حيث يشير اليه بأنه لم يترك له الموتساتيا.وكأن الشاعر قد نبه الىأن هذه الاشياء التى ينتظر منها الاشفاق عليه لا تحس ولا تعقل فيعود ليشير الى أن نسوة السمينة يعزا عليهن ما هو فيه — ويرسم الشاعر بعد ذلك بالحوار الدرامى مشهد الترقب المرير للموت وهو يطلب من اصحابه ان يرفعوه قليلا ليمتع عينيه بمشهد سهيل هذا النجم الذى يطلع من ناحية وطنه وأهله ويطلب اليه الاقامة معه قليلا فقد تبين أن الامر جد لاهزل فيه وان الموت لا محالة نازل به وهو يوصيهما بأن يوسعا له فى القبر وتثير هذه المشاعر فى نفسه حيث يبدو عاجزا سهل القياد لا حول ولا قوة ولا ارادة صورة اخرى كما قلنا — صورة الرجل القوى الذى كان صعب القياد صبورا على نده فى الحرب. هنا يذكر شجاعته وسرعته الى ميدان القتال لنجدة من دعاه وبينما كان قويا على عدوه كا نهينا لينا مع أهله وجيرانه .

وقد كنت صبارا على القرن فى الوغى وعن شتمى ابن العم والجار وانيا
يتراخى فى الاساءة الى المقربين ويسرع فى الاذى للأعداء .

تمتد القصيدة لتنسج بالدموع والندم مشاعر الاشفاق على النفس. هذا الاشفاق الذى يلتمس المشاركة والاحساس بأن من تركهم خلفه سوف يعرفون خسارتهم فيه وهو واثق من مشاعر اهله تجاهه هذه المشاعر التي أنبتها وغذاها هو بأفعاله معهم فهو يوصى صاحبيه بأن يذهبا الى السمينة ويعلنا نعيه على الملأ واشارته الى النساء الجميلات تعكس ولعه بالجمال وانه كان عاشقا للنساء فقد ورد ذكر هؤلاء الحسان مرارا فى القصيدة :

وقوما على بئر السمينة اسمعا بها الغر والبيض الحسان الروانيا
بأنكما خلفتمانى بقفرة تهيل على الريح فيها السوافيا

يود الشاعر من كل قلبه وهو يموت ان يطمئن على ان مشاعر الحب والحنان تغمر قلوب اهله وعشيرته ومعجباته من النساء حزنا على وفاته فى الغربة وهو يتوسل بهذه الصور الاليمة للطريقة التى مات بها. ثم يستطرد الشاعر بعد ذلك فى هذا الاشفاق على النفس فنجده يرق ويصفو ويهفو الى المستحيل الحياة — وتمتد عباراته فى صيغة بالغة البساطة والعمق والصدق .

يقولون لاتبعدوهم يدفنونى وأين مكان البعد الا مكانيا

وأصبح مالى من طريف وتالد لغيرى ، وكان المال بالامس ماليا

انه يتفجع على هذا المال الذى سوف يؤول لغيره وقد كان له من قبل ثم يعرض لصور الحياة فى قومه وكأنه يودع فيها هذه السعادة والراحة والطمأنينة والحب وهو يولى عن الدنيا ويتشبث مرة أخرى بهذا المعنى الذى يردده طوال القصيدة وهو الاطمئنان الى مشاعر الحب عند اهله وهل يضمرون له ما يستحقه فارس مثله من تقدير عظيم واعتزاز جدير بمكانته — هل تتغير شخصية الشاعر الشجاع فيفقد الثقة فى مكانته فى قلوب قومه فهو يطلبها دائما فى القصيدة. أم انه يلتمس فى هذه المشاعر لونا من الحياة تكون عوضا عن الحياة الحقيقية التى يودعها الآن — اغلب الظن أن الشاعر يبحث وهو يرى فناء الحياة عن لون من الخلود . لون من البقاء نوع من الوجود فى الخلف الباقى من اهله وعشيرته والمعجبات به. هل هو تشبث بالحياة حتى بعد فناء الحياة ونوع من التعلل بالاوهام .

فياليت شعرى . هل بكت ام مالك كما كنت لو عالوا بنعيك باكيا
اذا مت فاعتادى القبور فسلمى على الرمس أسقيت السحاب الغواديا

يعود الشاعر الى احضان أمه فيوصيها بأن تذهب الى القبور تلتمس فيها ايناس الوحشة التى خلقها موته . والشاعر يعطى لعقله احيانا فرصة للسيطرة على مشاعره حتى يصدع بالأمر الذى ليس منه بد فالحقيقة ساطعة والاوهام باطلة .

فيا صـــــاحبى اما عرضـــــت فبلغن بنى مازن والريب ان لا تلاقيـــا

هذه هى الحقيقة وما سواها فهو باطل لا جدوى من التشبث به وما اجمل ختام القصيدة حيث يجمع الاهل والوطن والزمان الذى يضم الاثنين فى زفرة تجمع بين الحسرة والتمنى والتلظى بهذا الفراق الاخير .

وما كان عهد الرمـــل عندى واهله ذميما ولا ودعت بالرمل قاليـــا

ينطوى البيت على الندم والحب العظيم لكل شىء فى وطنه انها نهاية توشك أن تكون عزاء فى نفس الوقت والقصيدة خالية من اللفظ الغريب والتركيب المتكلف والصورة المعقدة فهى صورة خالدة لمأساة الانسان ـــ فى مواجهة الموت وهو انسان محب للحياة ولكل ما فيهـــا وهو يضـــطر للتسليم بالحقائق الأليمة فى الوجود هذه الحقائق التى يمثل الموت ذروة اليقين فيها جميعا .

القصيدة اليائية المسماه

« المؤنســـــة »

لقيس بن الملوح — مجنون ليلى

تذكرت ليلى والسنين الخواليـــا ... وايام لا نخشى على اللهو ناهيـــا
ويوم كظـــل الرمح قصرت ظـــله ... بليلى فلهانى ومـــاكنت لا هيـــا
بثمدين لاحت نار ليـــلى وصحبتى ... بذات الغضى تزجى المطى النواجيا
فقال بصير القوم لمحت كوكبـــا ... بدا فى ســـواد الليل فردا يمانيـــا
فقلت له : بل نار ليـــلى توقدت ... بعليا تسامى ضوؤها فبداليـــا
فليت ركاب القوم لم تقطع الغضى ... وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
فياليل كم من حاجة لى مهمـــة ... اذا جئتكم بالليل لم ادر ماهيـــا
خليـــلى ان لا تبـــكيانى التمس ... خليلا اذا انزفت دمعى بكى ليـــا
فما أشرف الايقـــاع الا صـــبابة ... ولا أنشـــد الاشـــعار الا تداويا
وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما ... يظنـــان كل الظن أن لا تلاقيـــا
لحى الله اقواما يقولون اننـــا ... وجدنا طوال الدهر للحب شافيا
وعهدى بليلى وهى ذات مؤصـــد ... نرد علينـــا بالعشى المواشـــيا
فشب بنو ليلى وشب بنو ابنهـــا ... واعلاق ليلى فى فؤادى كما هيـــا
اذا ما جلســـنا مجلسا نستلذه ... تواشـــوا بنا حتى لمل مكانيـــا
ســـقى الله جارا لليلى تبـــاعدت ... بهن النوى حيث احتللن المطانيـــا
ولم ينسنى ليلى افتقار ولا غنـــى ... ولا توبة حتى احتضنت السواريا
ولا نسوة صبغين كبداء جلعـــدا ... لتشبه ليلى ثم عرضـــنها ليـــا
خليـــلى لا والله لا أمـــلك الذى ... قضى الله فى ليلى ولا ما قضى ليـــا
قضاها لغيرى وابتلانى بحبهـــا ... فهلا بشىء غير ليـــلى ابتلانيـــا
وخبرتمانى أن تيمـــاء منـــزل ... لليلى اذا ما الصيف القى المراسيا
فهذى شهور الصيف عناقد انقضت ... فما للنوى ترمى بليلى المراميـــا
فـــلو أن واش باليمـــامة داره ... وداری بأعلى حضرموت اهتدى ليا
وماذالهم لاحسن الله حالهـــم ... من الحظ فى تصريم ليلى حباليـــا
وقد كنت اعلو حب ليلى فلم يزل ... بى النقض والابرام حتى علانيـــا
فيارب سوى الحب بينى وبينهـــا ... يكون كفـــافا لاعلى ولا ليـــا
فما طلع النجم الذى يهتدى بـــه ... ولا الصبح الاهيجا ذكرها ليـــا
ولا سرت ميلا من دمشـــق ولا بدا ... سهيل لاهل الشام الا بداليـــا
ولا سميت عندى لها من ســـمية ... من الناس الا بل دمعى ردائيـــا
ولا هبت الريح الجنوب لأرضـــها ... من الليـــل الابت للريح حانيـــا
فان تمنعوا ليلى وتحموا بلادهـــا ... على فلن تحموا على القوافيـــا
فاشـــهد عند الله انى احبهـــا ... فهذا لها عندى فما عندها ليـــا
قضى الله بالمعروف منهـــا لغيرنا ... وبالشوق منى والغرام قضى ليـــا

وان الذى املـــت يا ام مـــالك ... اشاب فويدى واستهام فؤاديا
اعد الليـــالى ليـــلة بعد ليـــلة ... وقد عشت دهرا لا اعد الليـاليـــا
واخـــرج من بين البيـوت لعلنى ... احدث عنك النفس بالليل خاليـــا
ارانى اذا صـــليت يممت نحوهـــا ... بوجهى وان كان المصلى ورائيـــا
وما بى اشـــراك ولكن حبهـــا ... وعظم الجوى اعيا الطبيب المداويا
احب من الاسماء ما وافق اسمها ... او اشبهه او كان منه مدانيـــا
خليـــلى ليلى اكبر الحـــاج والمنى ... فمن لى بليلى او فمن ذا لها بيـــا

لعمرى لقد ابكيتنى يا حمـــامة العقيـــق وابكيت العيون البواكيـــا

خليلى ما ارجو من العيش بعدما ... ارى حاجتى تشرى ولا تشترىليا
وتجـــرم ليلى ثم تزعـم اننى ... سلوت ولا يخفى على الناسمابيا
فلـــم ار مثلينـــا خليلى مصـــابة ... اشد على رغم الاعادى تصـــافيا
خليلان لا نرجو اللقـــاء ولا نرى ... خليلـــين الايرجوان تلاقيـــا
وانى لاستحييك ان تعرض المنـــى ... بوصلك او ان تعرضى فى المنى ليا
يقول اناس مل مجنـــون عامـــر ... يروم نســـلوا قلت انى لمابيـــا
بى اليأس او داء الهيام اصـــابنى ... فاياك عنـــى لا يكن بك مابيـــا
اذا ما استطال الدهر يا ام مالك ... فشأن المنايا القاضيات وشـــانيا
اذا اكتحلت عينى بعينك لم تزل ... بخير وجلت غمرة عن فؤاديـــا
فانتالتى ان شئت اشقيتعيشتى ... وانت التى ان شئت انعمت باليا
وانت التى مامن صديق ولا عـــدا ... يرى نضوما ابقيت الا رثى ليـــا
امضروبة ليلى على ان ازورهـــا ... ومتخذ ذنبا لهـــا ان ترانيـــا
اذا سرتفى الارضالفضاء رايتنى ... اصانع رحلى ان يميل حياليـــا
يمينـــا اذا كانت يمينـــا وان تكن ... شمالا ينازعنى الهوى عن شماليا
وانى لاستغشى وما بى نعســـة ... لعل خيالا منـــك يلقى خياليـــا
هى السحر الا ان للسحر رقيـــة ... وانى لا الفى لها الدهر راقيـــا
اذا نحن ادلجنا وانت امامنـــا ... كفـــا لمطايانا بذكراك هاديـــا
ذكتنار شوقىفىفؤادى فاصبحت ... لها وهـــج مستضرم فى فؤاديـــا
الا ايها الركب اليمانون عرجـــوا ... علينـــا فقد امسى هو انا يمانيـــا
اسائلكم هل سال نعمـــان بعدنا ... وحب الينا بطن نعمـــان واديا
الا ياحمامى بطن نعمـــان هجتما ... على الهوى لمـــا تغنيتمـــا ليـــا
وابكيتمانى وسط صحبى ولم اكن ... ابالى دموع العين لو كنت خاليـــا
ويا ايهـــا القمر يتـــان تجاويـــا ... بلجنيكما ثم اســـجعا عللانيـــ
فان انتما اســـتطربتما او اردتم ... لحاقا باطلال الغضى فاتبعانيـــا
الا ليت شعرى ما لليلى وما ليـــا ... وما للصبا من بعد شيب علانيـــا
الا ايها الواشى بليـــلى الا ترى ... الى من تشيها او بمن جئت واشيا
لئن ظعن الاحباب يا ام مالـــك ... فما ظعن الحـــب الذى فى فؤاديا
فيارب اذ صيرت ليلى هى المنى ... فزنى بعينيها كما زنتها ليـــا
والا فبغضـــها الى واهلهـــا ... فانى بليلى قد لقيت الدواهيـــا
على مثل ليلى يقتل المرء نفســـه ... وان كنتمن ليلى علىاليأس طاويا
خليلى ان ضنوا باليـــلى فقربا ... لى النعش والاكفان واستغفر ليا

وردت هذه القصيدة فى كثير من المصادر منسوبة لامير العشـــاق قيس بن الملوح بن مزاحم بن عـــدس بن ربيعه المعروف بمجنون ليلى . وكان قد احب ابنة عمه . ليلى بنت سعد بن مهدى بن ربيعة . وانشـــد فيها شعرا جميلا عذبا تقبلته الاذواق والنفوس باعجـــاب شديد فذاع وشاع بين القبائل حتى عرف امر غرامه بليلى وكلفه الشديد بها . وكان حبه قويا زلزل روحه واضعف جسده مما دعا اهله الى محاولة خطبة ليلى له وتزويجه اياها ولكن اباها رفض هذا الزواج عملا بالتقليد المعروف لدى القبائل فى ذلك الحين بحرمان من يشبب بامراة من الزواج بها دفعا للظنـــون واسكاتا للالسنة التى قد يجمح بها الخيال الى تصور ان ما جاء فى القصائد انما هو حقائق واقعة وان الزواج ليس الا سترا لهذه الحقائق وتدخل الشفعاء والوجهاء والامراء لعل والد ليلى يرق لهذا العاشـــق ويزوجه ابنته ولكنه ابى الا العناد ويروى صاحب الاغانى اخبـــار هذه المساعى الخائبة لدى هذا الوالد العنيد فيقول ان ابا المجنون وامه ورجال عشيرته اجتمعوا الى ابى ليلى فوعظوه وناشـــده الله والرحم . وقالوا له : ان هذا الرجل لهالك . وانك فاجع به اباه واهـــله فنشدناك الله والرحم ان تفعل ذلك فوالله ما هى اشرف منه ومالك مثل مال ابيه وقد حكمك فى المهروان شئت ان يخلع عليك ماله فعـــل . فابى وحلف بالله وبطلاق امها انه لا يزوجه اياها ابدا وقال : افضح نفسى وعشيرتى وآتى ما لم يأته احد من العرب واسم ابنتى بميسم الفضيحة فانصرفوا عنه . وخالفهم لوقته فزوجها رجلا من قومها وادخلها اليه فما امسى الا وقد بنى لها وبلغه الخبر فايس منها حينئذ وزال عقله جملة فقـــال الحى لابيـــه . احجج به مكة وادع الله عز وجل له مرة ان يتعلق باستار الكعبة فيسأل الله ان يعافيه مما به ويبغضها اليه . فلعل الله ان يخلصه من هذا البلاء فحج ابوه فلما صاروا بمنى سمع صائحا فى الليل يصيح . ياليلى فصرخ صرخة . ظنوا ان نفسه تلفت وسقط مغشيا عليه فلم يزل كذلك حتى اصبح حائل اللون ذاهلا ثم قال له ابوه : تعلق بستار الكعبة واسأل الله ان يعافيك من حب ليلى فتعلق باستار الكعبة وقال اللهم زدنى لليلى حبا وبها كلفـــا ولا تنسنى ذكرها ابدا فهام حينئذ واختلط فلم يضبط قالوا فكان يهيم فى البرية مع الوحش ولا يأكل الا ما ينبت فى البرية من بقل ولا يشرب الا مع الظباء اذا وردت مناهلها وطال شعر جسده والفته الظبـــاء والوحوش فكانت لا تنفر منه وجعل يهيم حتى بلغ حدود الشام فاذا ثاب عقله سأل من يمر به من احياء العرب عن نجد فيقال له : واين انت من نجد فقـــد شارفت الشام . انت فى موضـــع كذا فيقول فاروني وجهـــة الطريق فيرحمونه ويعرضون عليه ان يحملوه او يكسوه فيأبى فيدلونه على طريق نجد فيتوجه نحوه . « جن قيس اذن وضاع عقله وهزل جسمه وتناقل الناس سيرته وشعره وتزوجت ليلى بالرجل الثرى ورد الذى اختاره لها ابوها . ويسقط المجنون ميتا بين أحجار الشعاب التى كان يفر اليها من ظلم العادات والتقاليد يسقط ميتا لتبقى قصة حبه وشعره اغنية الاجيال. عذبة بقدر ما فيها من حزن . ولتصير ليلى واحدة من اخلد المعشوقات فى تاريخ الادب ويظل قيس واحدا من اشهر عشاق العرب الشعراء . ويترك لنا الشاعر ديوانا يوشك ان يكون تجربة واحدة فى الحب والعذاب حب

واحد ومأساة واحدة وعذاب شديد متنوع الصور يبدأ بالفرح العظيم ويتطور الى الجنون لينتهى بالموت المأساوى بين شعاب الصحراء لا يؤنسه الا الوحش الذى كان أرفق به من بعض البشر . ويشك الكثيرون فى سيرة قيس ووجوده اصلا ويتعرض شعره أيضا للاضافة والحذف فالبعض يضيف اليه ما ليس له والبعض الآخر ينسب شعره لغيره . وهذه الاحتمالات التى تحيط بوجود قيس وشعره تثير وتضاعف الجدل حول حياته وتجعل هذه الحياة وهذا الفن مصدر بحث متصل واعجاب نادر بقصة الهوى والعذاب بل وتصير هذه القصة مبعث الهام لاعمال فنية اخرى مثل مسرحية مجنون ليلى لامير الشعراء احمد شوقى هذا هو الشاعر .. اما القصيدة فلها عالمها الرحيب الذى يصور القصة وابطالها وبيئتها ايضا .

يقول محقق الديوان الاستاذ عبد الستار احمد فراج ان هذه القصيدة اسمها المؤنسة وهى اطول قصيدة انشدها وواظب عليها . قيل انه كان يحفظها دون اشعاره وانه كان لا يخلو بنفسه الا وينشدها وفى الخزانة انها اشهر قصائده اذا تأملنا هذه القصيدة وجدناها تعبر عن تجربة حياة قيس ابن الملوح كلها . فهى قصيدة حياة لا قصيدة تجربة . انها مجموعة من الانهار الموسيقية والصور الشعرية تتدفق حاملة الى القلب والنفس والروح هذا الحزن العميق الذى انبثق من الفقد والحرمان والهوى المستحيل ولانها قصيدة حياة فهى تبدأ من الطفولة . تبدأ من الذاكرة التى ترحل الى سنوات البراءة والصفاء واللهو حيث لا يوجد عذال ينهون عنه . وكأنه وهو فى غمرة الحرمان من ليلى وفى غمرة حصار التقاليد له يتذكر طفولتهما حيث كانت هذه الطفولة تتيح لهما التمتع بحرية ببعضهما البعض دون رقيب عليهما . وجميل وذو مغزى أيضا ان يبدأ التذكر بليلى فليلى هى جوهر الامال وهى المطلب الاساسى ثم يأتى الزمان الذى يشكل مسرح القصة . ويقفز الشاعر بعد ذلك مباشرة الى الزمن الذى يعيش فيه لانه يتألم ويعانى الى حد يصبح معه التذكر ترفا . انه يصور رحلة له مع اصحابه . وها هى الكواكب فى سواد الليل تختلط عليه بنار ليلى . انه لا يرى هذه الكواكب الا نار ليلى . هو لا يرى ما حوله بل ما بداخله فبينما يقول اصحابه انهم يرون كوكبا يقول هو بل هذه نار ليلى . وتتناثر الابيات فى ذاكرة الشاعر فلا يكاد يقيم لها نظاما منطقيا فيتحدث مرة عن نبات الغضى وهو نبات سريع الاحتراق وكأنه وجد فيه معادلا نفسيا لما بداخله . وان كان هذا البيت لا ينتمى انتماء اصيلا الى القصيدة ثم يتوجه بالحديث الى ليلى ليخبرها ان كانت لا تدرى باهميتها لديه فهو يذهل عن حاجته اذا جاء طالبا لها من تأثير ادمانه التفكير فيها ويطلب من اصدقائه مشاركته فى البكاء والحزن . ويبدو ان الفراق كان يباعد بين ليلى وقيس فى هذه الفترة ولكنه فى الوقت نفسه يمنى نفسه باللقاء المأمول .

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما يظنان كل الظن ان لا تلاقيا

وهو ينكر ان يكون هذا الفراق قد دفعه الى السلوان او انه وجد شفاء لهذا الحب . وكان الحب مرض اصيب به ولماذا لا يصوره كمريض وقد اتلف عقله واضعف جسده وتركه هائما على وجهه لا يدرى من امره شيئا . وكأنه حلم التذكر كامن فى ضميره وفى عمق مخيلته فنراه يعود اليه مرة اخرى ليبرهن على ان حبه لليلى حب قديم نشأ مع طفولته وطفولتها وشب معهما ايضا . وكان قيس قد بلغه ان الوشاه يتحدثون عنه وعن احتمال نسيانه لليلى فينكر ذلك اشد الانكار . وهو يعلن بتأكيد واصرار ان حب ليلى ثابت فى جوانحه لا يمكن ان ينساه . ولا يؤثر فى هذا الحب فقر ولا غنى ولا توبة ولا نسوة مغريات يحاولن اغراءه والتقريب اليه بالتزين على طريقة ليلى لعله يخدع فيهن . جاءت هذه القصيدة بعد فترة طويلة من معاناة حبه بعد ان ظهرت الشائعات عن سلوه وبعد ان تزوجت بغيره فنراه منضجرا من هذه القسمة التى لا يقدر على احتمالها فقد قدر له ان يعشقها وقدر لها ان تكون لغيره .

قضـــاها لغيرى وابتلانى بحبهـــا فهلا بشىء غير ليلى ابتلانيـــا

يعود مرة اخرى الى التذكر والتأمل والحديث الطويل عن الوشاة الذين يتعقبون خطواته وهو لا يدرى لماذا يحرصون على تصريم حبالهما . ويتأمل الشاعر حاله فيرى ان حب ليلى قد غلبه وقهره حتى تحكم فى امره لقد كان غالبا على حبه مسيطرا على مشاعره ولكن هذا الحب قد تطور حتى غلبه وتحكم فيه انه يرجوا العدل فى الحب . حتى لا يكون مظلوما مغلوبا على امره .

فيارب ســـــو الحب بينى وبينها يكون كفافا لا على ولا ليـــا

ونحن نرى الشاعر يذكر دمشق فى قصيدته فأين هو من دمشق لقد كانت قريته فى أرض نجد فكيف نراه قريبا من دمشق حيث يقول «ولا سرت ميلا من دمشق ولا بدا . سهيل لاهل الشام الا بداليا » .

ان هذا البيت يوحى بأن فيه خروجا منطقيا على مكان القصة ولكن القارىء لكتاب الاغانى يرى ان المجنون كان يهيم على وجهه حتى يصل الى اطراف الشام فيسأل عن نجد فيقولون له واين انت من نجد . ان الشاعر فى هذه القصيدة يعطى انطباعا بالغربة فهو يذكر الريح التى تهب نحـو ارض الحبيبة والتى تهيج احزانه ويخاطب محبوبتـه محاولا ان يعطف قلبها عليه . ويدخل الشـــاعر بعد ذلك فى تعبير بليغ عن مدى القداسة التى وصلت اليها الحبيبة فى نفسه . هل هى قداسة حقيقية ام هو ذهول عن نفسه فلا يكاد يدرى ماذا يفعل وهل يدرك المجنون ماذا يأتى من الافعال . ولكنه يدفع عن نفسه رغم ذلك تهمة الشرك بالله . انه على وعى اذن بالحدود التى ينبغى ان يقف عندها . ولكنه غير قادر على ذلك .

أرانى اذا صليت يممت نحوها بوجهى وان كان المصلى ورائيـــا
وما بى اشراك ولكن حبهـــــا وعظم الجوى أعيا الطبيب المداويا

تبدأ القصيده بعد هذه المرحلة التصويرية الباهرة فى الانتقال الى نوع من المناشدة والحوار مع النفس والبكاء الحزين اشفاقا على النفس مما الم بها .ويكاد الشاعر أن يدفعنا الى البكاء وهو يكاد يعلن عنفقدان رغبته فى الحياة بعد أن ذهبت ليلى الى غيره . ان الحمائم النائحة تهيج احزانه وهى ليست فى حاجة الى من يهيجها .

لعمرى لقد ابكيتنى ياحمامـــ ـــة العقيق وابكيت العيون البواكيا

ان تعبير العيون البواكى يؤكدان حزن الشاعر غامـــر وان البكاء الذى اثاره نواح الحمائم هوبكاء جديد يضاف الى البكاء المتصل القديم . وتتصاعد الشكوى وينصاعد العذاب وتنتقل القصيدة من العتاب الاليم الى الشكوى الى الاستعطاف الى تأكيد الولاء حتى انه ليتجه براحلته الى حيث تقيم .

يمينا اذا كانت يمينـــا فان تكن شمالا ينازعنى الهوى عن شماليا

وما أعـــذب جمال هذا البيت الذى يصـــور فيه الشاعر التظاهر بالنوم لعلها حبيبته تأتيه فى الحلم وكأنه قادر على خداع الاحلام ولـــكنه الشوق الغلاب المضنى وتستمر حملة الشاعر الشعواء على الوشـــاة الذى لا يتركونه وشأنه ويؤكد لليلى انه اذا كانت الايام لا تكف عن دفعنا الى الرحيل الهائم وهو احد العلامات الاساســـية والضرورية لحيـــاة البادية . فان حبه لها ثابت ومقيم .

لئن ظعن الاحباب يا أم مـــالك فما ظعن الحب الذى فى فؤاديا

ويقترب الشاعر بعد يأسه القاتم من الموت هذا الشاطىء الاخير لرحلة المعاناة . وانه شاطىء النهاية المحتومة :

رغم انه يعتصم بنوع من الوهم وبصيص من الامل ولكنه لا يملك الا اليأس فى ختام محاولاته .

خليلى ان ضـــنوا بليلى فقربا لى النعش والاكفان واستغفرا ليـــا

والقصيدة بهذا تصل الى ختامهـــا مشحونة بالشجن والرحيـــل والفرح النادر والامل المستحيل . والقصيدة ليست محكمة البناء ولاتحكمها الوحدة العضوية ولا النمو المنطقى ولكنها لا تريد ان تقدم تجربة بل حياة كاملة يحمله الشعر على جناحه . واذا كانت الحياة البشرية قد وجدت ختامها فى الفناء والعدم فان الشعر قد ظل محلقا فى سماء الخلود .

غزليـــات الاحوص

رام قلبى الســـلو عن أســماء ... وتعزى ومـــا به من عـــزاء
سخنة فى الشـــتاء باردة الصـــــيف سراج فى الليلة الظلمـاء
كفنائى انمت فى درع أروى وامتحـ ... الى من بئر عـــروة مائـــى
اننى والذى تحـــج قريشـــ ... بيتـــه ســـالكين نقب كـداء
لملم بهـــا وان ابـت منهـــا ... صـــادرا كالـذى وردت بـداء
ولها مربـــع ببرقة خـــاخ ... ومصـيف بالقصر قصر قبـــاء
قلبت لى ظهر المجـــن فأمست ... قد أطـــاعت مقـالة الاعـداء

***

وانى ليدعونى هوى أم جعفـــر ... وجاراتهـــا من ســـاعة فأجيب
وانى لآت البيت ما ان أحبـــه ... واكثـــر هجـر البيت وهو حبيب
تطيب لى الدنيا مرارا وانهـــا ... لتخبث حتى مـــا تـكاد تطيب
وانى اذا مـــا جئتكـم متهلـــلا ... بدا منـــكم وجـــه على قطوب
واغضى على اشياء منكم تسؤنى ... وادعـــى الى ما سركم فأجيب
واحبس عنك النفس والنفس صبة ... بقربك والمشى اليـك قريـــب
وما زلت من ذكراك حتى كاننـى ... أهيم بأفيـــاء الديار ســـليب
ابثك ما القى وفى النفس حاجـة ... لها بين جلدى والعظـــام دبيب
هبينى امرأ اما بريئا ظلمتـــــه ... واما مســـيئا مذنبا فيتـــوب
لك الله انى واصـــل ما وصلتنى ... ومثـــن بمـــا اوليتنى ومثيـــب
وآخذ ما اعطيت عفـــوا واننـــى ... لأزور عمـــا تكرهين عيـــوب

***

قالت ــ وقلت تحرجـــى وصـــلى ... حبل امرىء بوصـــالكم صـــب
واصـــل اذن بعلى فقلت لهـــا ... الغـدر شـــىء ليس من ضربى
ثنتـــان لا أدنو لوصـــلهما ... عرس الخليـــل وجـــارة الجنب
أمـــا الخليـــل فلست فاجعـــه ... والجـــار أوصـــانى به ربـــى
وببطـــن مـــكة لا أبـــوح به ... قرشـــية غلبت على قلبـــى
ولو انهـــا اذ مـــر موكبهـــا ... يوم الكديد أطـــاعنى صحبـــى
قلنـــا لها حييت من شـــجن ... ولركبهـــا حييت مـــن ركـــب
والشـــوق أقتـــله برؤيتهـــا ... قتل الظما بالبـــارد العـــذب
والنـــاس ان حـــلوا جميعهم شـــعبا ســـلام وانت فى شـــعب
لحللت شـــعبك دون شـــعبهم ... ولكن قربى منكـــم حســـبى
عوجوا كـــذا نذكر لغانيـــة ... بعض الحديث مطيكم صـــحبى
ونقل لها فيم الصـــدود ولـــم ... نذنـــب بـــل انت بدأت بالذنب

ان تقبلى تقبل وننزلكم منا بدار السهل والرحب
او تدبرى تكدر معيشتنا وتصدعى متلائم الشعب

***

افنى كل يوم حبة القلب تقرع وعينى لبين من ذوى الود تدمع
ابا الجد انى مبتلى كل ساعة بهم له لوعات حزن تطلع
اذا ذهبت عنى غواش لعبرة اظل لاخرى بعدها اتوقع
فلا النفس من تهما مها مستريحة ولا بالذى يأتى من الدهر تقنع
ولا انا باللائى نسبت مرزؤ ولا بذوى خلص الصفا ممتع
واولع بى صرف الزمان وعطفه لتقطيع وصل خلة حين تقطع
وهاج لى الشوق القديم حمامة على الايك بين القريتين تفجع
مطوقة تدعو هديلا وتحتها له فنن ذو نضرة يتزعزع
وما شجوها كالشجو منى ولا الذى اذا جزعت مثل الذى منه اجزع
فقلت لها لو كنت صادقة الهوى صنعت كما اصبحت للشوق اصنع
ولكن كتمت الوجد الا ترنما اطاع له منى فؤاد مروع
وما يستوى باك لشجو وطائر سوى انه يدعو بصوت وتسجع
فلا انا مما قد بدا منك فاعلمى اصب بعيدا منك قلبا واوجع
ولو ان ما اعنى به كان فى الذى يؤمل من معروفه اليوم مطمع
ولكننى وكلت من كل باخل على بما اعنى به وامنع
وفى البخل عار فاضح ونقيصة على اهله والجود ابقى واوسع
اجدك لا تنسى سعاد وذكرها فيرقاء دمع العين منك فتهجع
طربت فما ينفعك يحزنك الهوى مودع بين راحل ومودع
ابى قلبها الا بعادا وقسوة ومال اليها ود قبلك اجمع
فلا هى بالمعروف منك سخية فتبرم حبل الوصول او تتبرع
ولا هو اما عاتب كان قابلا من الهائم الصب الذى يتضرع
افق ايها المرء الذى يهمومه الى الظاعن النائى المحلة ينزع
فما كل ما املته انت مدرك ولا كل ما حاذرته عنك يدفع
ولا كل ذى حرص يزاد بحرصه ولا كل راج نفعه المرء ينفع
وكم سائل امنية لو ينالها لظل بسوء القول فى القوم يقنع
وذى صمم عند العتاب وسمعه لما شاء من امر السفاهة يسمع
ومن ناطق يبدى التكلم عيه وقد كان فى الانصات عن ذاك مربع
ومن ساكت حلما على غير ريبة ولا سواة من خزية يتقنع

***

هذه المختارات من شعر الغزل لواحد من اهم شعراء العصر الاموى وهو الاحوص يقف مرة الى جوار مدرسة عمر بن ابى ربيعة بما عرف عنها من غزل صريح وولع بالجمال وتعقبه فى غير حرج ولا تاثم ومرة اخرى يضعه بعض مؤرخى الادب بالقرب من مدرسة جميل بن معمر شاعر الغزل العذرى ولكنه بين هؤلاء شاعر لا تغفله

الروايات ولا يهمله التقييم الادبى وقد جعله ابن سلام فى الطبقة السادسة من شعراء الاسلام وجاء موقعه فى تقييم ابن سلام بعد عبد الله بن قيس الرقيات وجميل بن معمر ونصيب ويقول ابو الفرج الاصفهانى «والأحوص لولا ما وضع به نفسه من دنيء الاخلاق والافعال اشد تقدما منهم عنـــد جماعة أهل الحجاز وأكثر الرواة وهو أسمح طبعا وأسهل كلاما واصح معنى منهم ولشعره رونق وديباجة صافية وحلاوة وعذوبة الفاظ ليست لواحة منهم « أما نسب الشاعر الكامل فهو عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن عاصم بن ثابت ابن أبى الاقلح .. وكان جده عاصم رئيس وفد بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى احدى قبائل العرب فقتل غـــدرا وحمله السيل فاخفاه عن عيون المشتركين ولكن يبدو أن الشاعر لم يكن على شبه بجده من الصلاح والتقوى بل هو شاعر اقرب الى المجـــون واللهو وخلع عذار الحياء بل الى الفسق نفسه وكان لسوء خلقه أثر كبير فى نفور الناس من مصاحبته كما تعرض للنفى والجلد على يد سليمان بن عبد الملك وحين وليى الامر عمر بن عبد العزيز أقصاه عنه وقرب غيره من الشعراء ويبدو انه كان دميما فاشاع ذلك فى نفسه نوعا من الحزن العميق قاده الى التحرر والتحلل والخروج على العرف والدين والاخلاق فى عصره وكلمة الاحوص مأخوذة من صفة الاحمرار فى العينين .

ويبدو ان هذا الاحمرار قد ضاعف من قبح وجهه فكان غير قادر على اقامة علاقات طبيعية مع ربات الحجال فلم يعرف عنه أنه وفق فى علاقة عاطفية ولا أنه كان مرغوبا من النساء شأن عمر بن أبى ربيعة الذى اتسم بالوسامة ورفعه الجاه والطبقة والشهرة بالحظوة عند النســـاء ولكن الاحواص كان ذا قدم ثابتة فى مجال شعره شهد له بذلك الانذاذ مـــن الشعراء فى عصره ومنهم الفرزدق الذى يروى صاحب الاغانى أنه قدم المدينة ثم خرج منها فسئل عن شعرائها فقال رأيت بها شاعرين وعجبت لهما احدهما أخضر يسكن خارجا من بطحان (يريد ابن هرمة) والآخـــر أحمر كأنه وحرة على برودة شعره (يريد الاحوص) .

عاش الاحوص حياة النافر من مجتمعه ولم يجد قبولا من الخلفاء الا بعد وفاة عمر بن عبد العزيز وتولى يزيد بن عبد الملك بن مروان .. ويرى محقق ديوانه الاستاذ عادل سليمان جمال ان الاحوص كان مغرما بسلامة المغنية وانها هى أيضا كانت أيضا مغرمة به فيقول ، اما سلامة القس فهى المغنية التى تعلق بها ، الاحوص تعلقا شديدا ويبدو أنه احبها وكلف بها « اما الدكتور طه حسين فبعد أن يشرح موقف الشاعر الدينى ويوافق كما يبدو على الروايات المتعددة التى تصفه بالفسق والفجـــور يعترف بشاعريته ويستشهد على ذلك بآراء كبار شعراء عصره فيه يقول الدكتور طه حسين فى كتابه حديث الاربعاء « كان الاحوص غزلا ولكنه كان مفتنا فى ضروب الشعر كلها له الفخر الرائع والمدح البديع والهجاء

المقذع وذلك لانه لم يكن متكلفا ولا محتشما وانما كان يرسل نفسه على سجيتها وكانت نفسه خصبة غنية بضروب الخير والشر فكان يكفى أن يعكف على هذه النفس لحظة فيجد فيها كل ما يريد .. كان حلو اللفظ متينة قوى الاسلوب رصينة يبلغ الاجادة اللفظية فى غير تكلف ولا مشقة ولم يكن كغيره من العزلين المكيين يعنى بالمعنى يستخف بالالفاظ وانما كان حريصا على التجويد فى لفظه ومعناه جميعا .

عاش الاحوص بسبب قبح وجهه منحرف النفس وحين تولى يزيد بن عبد الملك دخل عليه الاحوص فقال له يزيد والله لو لم تمت الينا بحرمة ولا توسلت بدالة ولا جددت لنا مدحا غير انك مقتصر على البيتين الذين قلتهما فينا لكنت مستوجبا لجزيل الصلة منى حيث تقول :

وانى لاستحييكم أن يقودنى الى غيركم من سائر الناس مطمع
وان اجتدى للنفع غيرك منهم وانت امام للرعاية مقنع

وقد مات الاحوص فى خلافه يزيد بن عبد الملك كما يرى الاستاذ عادل سليمان بعد حياة من المعاناة والقسوة ولكن الشاعر استطاع أن يضىء هذه الحياة بمصباح شعره الوهاج المتالق . اذا وقفنا امام هذه الغزليات راينا مطابقة لتلك الصفات التى اطلقها عليه النقاد القدامى فهو سهل العبارة واضح المعنى جزل الالفاظ .

تكثر الاسماء فى هذه الغزليات فهو يذكر ام جعفر وسلام واسماء وغيرهن ولكن ذلك لا يخدعنا فنتصور انه اقام صلات بكل هاته النسوة اللائى ذكرهن فتلك الأسماء الكثيرة التى ذكرها الشعراء الغزلون انما تدل اولا على نمط من هؤلاء الشعراء هم الذين لا يوقفون حبهم على امراة واحدة وانما هم يتبعون هواهم فى تعقب الجمال اينما وجد وتدل ثانيا على أن تقاليد المجتمع البدوى ما كانت لتبيح للشاعر أن يصرح باسم محبوبته فكان يتخذ هذه الاسماء بمثابة اقنعة لاسم حبيبته الحقيقية .

والغزلية الاولى من هذه الغزليات تقدم صورة من صور الازمات العاطفية التى مر بها الشاعر فحبيبته اسماء قد سمعت كلام الوشاة فيه فهجرته على ما يبدو مما دفعه الى اليأس منها والبحث عن العزاء والسلوان ولكن انى له بذلك وهى كما وصفها دائمة فى الشتاء باردة فى الصيف سراج فى الليلة الظلماء .. كل هذه الصفات التى تجمع بين الحواس المختلفة تعمق فى المتلقى لشعره صورة جذابة لهذه الحبيبة الهاجرة وهو يقسم على أن يلم ببيتها حتى لو كانت هذه الزيارة مصدر الالم ولا جدوى منها .. والقصيدة تؤكد ثلاثة معان اساسية الوصف الخارجى للشخصية المحبوبة والعزم على المضى فى الحب مهما كانت العقبات ثم توضيح الشخصية الاجتماعية للحبيبة وطبقتها الراقية التى تنتهى اليها فهى لها مشتى ومصيف أن الشاعر فى هذه الابيات القليلة قد بلغ من نفوسنا حد الاعجاب بهذه السهولة والجزالة والدقة فى اصابة

المعنى الذى يريد ايصاله لنا . فاذا انتقلنا الى الغزلية الثانية رأيناه يقف موقف الاستعطاف والتوبة وطلب الرضا من أم جعفر ويبدو ان الشاعر كان بعيدا عن الحظوه من النساء فجاء شعره يطفح بهذا الالم وهذا الجفاء الذى يعانية من حبيباته ويروى الدكتور طه حسين قصة أم جعفر هذه فيقول :

زعموا انه اى الاحوص اسرف فى ذكر أم جعفر وهى انصارية عفيفة فلما ضاق بها الأمر اقبلت ذات يوم متنكرة حتى وقفت عليه وهو فى جماعة من قومه فقالت له : اقضنى ثمن الغنم التى اشتريتها منى فأنكر ذلك والحت وصدقها الناس واخذ هو يحلف ما رآها ولا يعرفها فكشفت عن وجهها واصر هو على انكاره وقد اجتمع حولهما الناس فلما بالغ فى الانكار قالت أم جعفر صدقت يا عدو الله ، والله ما اعرفك وما تعرفنى ولكنك تذكرنى فى شعرك فتقول قالت لى أم جعفر وقلت لها ويشيع ذلك فى الناس فخجل الاحوص وقارىء الغزلية يوقن من صدق الاحوص فى حبه او على الاقل فى ولعه بالجمال وقد تكون أم جعفر اخرى هى المقصودة .

تجيء هذه الغزلية حافلة بالاحساس بأن الشاعر غير مرغوب فيه وهو وان كان يرى ان الدنيا تطيب له احيانا واحيانا اخرى تخبث فان ازمة الشاعر انه يميل الى من لا يرغب فيه فها هو يجيء متهللا فلا يجد الا التقطيب ويبدو أن الاساءة اليه لم تكن فقط مجرد اهماله بل انه كان يغضى على الكثير ويلجأ فى بعض الحالات الى الامتناع عن زيارتها لاثارة اهتمامها ولكن قربه وبعده لم يسفرا عن تحقيق المرام وها هو فى النهاية يعلن انه لم يملك حججا منطقية لاقناعها فهو يقول لها اما ان اكون مظلوما بسبب هذا الهجر فيحق لها اذن ان تصرف عنه ظلمها أو أنها تعتبره مذنبا فيؤكد لها انه على استعداد للتوبة ويبدى لها الرضى بما تجود به مهما كان هذا الذى تسمح به اريحيتها حتى لو صدر منها بلا قصد . هو راض وسعيد بما يرضيها وهو مقلع عن كل ما يغضبها وما يكون الحب سوى هذا .

اما الغزلية الثالثة فيبدو انها تجربة عابرة لم تبلغ من نفسه حد التوله والهيام ويبدو أن الشاعر فى هذه الغزلية قد وجد الفرصة سانحة للدفاع عن اخلاقه التى كانت موضع شبهة من الجميع. ولا نكاد نقرأ هذه الغزلية حتى نتعجب للتناقض فيها فهو يتعرض لامراة يزعم انه يحبها وهى زوجة لصوب تمهد له سبيل القرب منها فتنصحه بأن يصادق زوجها واذا به يصرح بأن اخلاقه لا تقبل هذا الغدر بالصديق فهو يرعى ذمام الصداقة والجوار .

ثنتان لا ادنو لوصلهما عرس الخليل وجارة الجنب

والذى يخرجنا من هذا التناقض هو التوهم بأن الاحوص لم يكن يدرى بأن لهذه المراة زوجا او انه اتخذها ذريعة للدفاع عن اخلاقه . والشاعر فى هذه القصيدة بالغ الحذق فى الحوار وفى الكشف عن شخصية

حبيبته وفى الحديث عن نفسه وفى ابتداع الصور الشعرية البارعة التى تصور قدرته على الصياغة الفنية لاحاسيسه التى قد تكون عادية ولكن التعبير عنها هو الذى جاء غير عادى وكم هو رائع البيت الذى يقول :

والشـــوق اقتله برؤيتهـــا قتـــل الظمـــا البارد العذب

بيت حافل بالتجسيد وقوة التصوير وبراعة التركيب بين الاشياء ليقدم لنا احساسه العارم بحب هذه المراة وشوقه اليها . فاذا جئنا الى غزليته الاخيرة وجدناها حافلة بهذا الايقاع العميق الذى يذكرنا بمجنون ليلى وبقيس بن ذريح وهذه الغزلية تنفرد بخاصية هامة هى انها تحمل نوعا من التوجع الشامل الذى يقتصر على فشل فى تجربة الحب بل هى تعبير عن فشل واضح فى تجربة الحياة ذاتها . ويبدو أن الشاعر كان كثير الارزاء فها هو يبدأ قصيدته بالاستفهام التعجبى (أفى كل يوم حبة القلب تقرع) واستخدام لفظ القرع يوحى بأن ما يحدث للشاعر هو نوع من المصائب الكبرى والشدائد الثقال فهو ما أن ينعم بذهاب غاشية من غواشى الحياة حتى يزعجه توقع غاشية جديدة فنفسه على خشية دائمة مما يقع لها ومما سيقع أيضا ولكأن الزمان قد اولع به فهو ماض فى تقطيع صلاته . أن الابيات الستة الاولى توحى بالظلال القاتمة التى تسيطر على مناخ حياة الشاعر وتؤكد ان هذه الحياة تتأرجح بين المصائب لا تحظى بالراحة ولا بالقناعة . ثم ينتقل الى الحمامة الشهيرة فى الشعر العربى حمامة الشعراء المؤنسة التى تظهر فى القصائد رفيقة مواسية لهؤلاء الحزانى الذين لا يجدون تعاطفا من البشر الذين يحيطون بهم وهذه الحمامة التى تنادى هديلا كأنها تطلب المستحيل لا تكاد تقترب من حزنها فى شىء من هذا الحزن الثقيل الذى يجثم على صدر الشاعر حتى انه حين يحاول المقارنة بينه وبينها يرى نفسه يبكى ويراها تغنى وما ابعد المسافة بين البكاء والغناء فهو اذن لا يقنع بمشاركة الحمامة له فى جزنه . وهو يصرح لنا أن جزنه هذا من أجل من لا أمل فى وصله ولا عطائه .

ولو ان مـــا اعنى به كان فى الذى يؤمل من معروفه اليوم مطمـــع
ولـــكننى وكلت من كل باخـــل على بمـــا اعنى بـــه وامنـــع

وحبيبة الاحوص فى هذه القصيدة ذات اسم جديد هو سعاد .. ان سعاد فى هذه القصيدة مصرة على البعد والقسوة رغم انه يمنحهـا وده أجمع .. وكلمة اجمع هنا جاءت لتأكيد الهوة بين ما يضمره لها الشـاعر وما تفعله به ولا يجد الشاعر امامه سوى أن يجرد من نفسه شخصا آخر أكثر حزما ينهره ويزجره عن المضى فى هذا السبيل اليائس الذى لا أمل فيه فهو يؤكد له انه لن يحظى بكل ما يريد ومن ذا الذى يحظى بكل ما يريد فى هذه الدنيا . فلا انت قادر على أن تنال كل ما تريد ولا انت قادر على دفع كل ماتحاذر ان يحدث .. ثمة قدرية واضحة تلوح لعينى الشـاعر حتى تهدأ النفس وتستريح ..وهو يفترض ان الرضى لا يتحقق حتى ولو نال المراد فكم من امنية تجلب سخط الناس لو تحققت لصاحبها . يلجأ الشاعر الى حيلة اخرى لتعزية نفسه عن فشلها فى الحب ربما ؟ .... فى الحياة

بكل تأكيد : ان الحكمة الشعرية العربية التقليدية تتوح هذه الغزليـــــة البالغة الجزالة والرقة لتعطى للشاعر راحة متوهمة لم تستطع الحياة ان تمنحها له وهو شاعر سيء الحظ لدى الحسان لم ينفعه معهن شـــــعره الرقيق ولا ميله العميق واذا كانت قصائده تؤكد انه لم يكسب رضا النساء فهى تؤكد أيضا انه لم يخسر الشعر !!

غزليـــات

عمر بن ابى ربيعة

— ١ —

ليت هندا انجزتنـــا ما تعـــد ... وشـــفت انفســـنا مما تجـــد
واســـتبدت مـــرة واحـــدة ... انمـــا العـــاجز من لا يســـتبد
زعمـوهـــا ســـألت جاراتهـــا ... وتعـــرت ذات يـــوم تبتـــرد
أكمـــا ينعتنـــى تبصرننـــى ... عمركـــن اللـــه أم لا يقتصـــد
فتضـــاحكن وقـــلن لهـــا ... حســـن فى كل عـــين من تسود
حســـد حملنـــه من شـــانها ... وقديما كان فى النـــاس الحســـد
غـــادة يفتر عـــن اشـــنبها ... حـــين تجـــلوه اقاح او بـــرد
ولهـــا عينـــان فى طرفيهمـــا ... حـــور وفى الجيـــد غيـــد
طفـــلة باردة التيـــظ اذا ... معمعان الصيف اضحى يتقـــد
ســـخنة المشـــتى لحـــاف للفتى ... تحت ليل حـــين يغشـــاه الصرد
ولقـــد اذكـــر اذ قلت لهـــا ... ودموعى فـــوق خـــدى تطـــرد
قلت من انـــت فقـــالت انا من ... شـــفه الوجـــد وابلاه الكمـــد
نحن اهـــل الخيف من اهـــل منى ... مـــا لمقتـــول قتلنـــاه قود
قلت اهـــلا انتـــم بغيتنـــا ... فتســـمين فقـــالت انا هنـــد
انمـــا خبـــل قلبى فاحتـــوى ... مســـعدة فى ســـابرى تطـــرد
انما اهـــلك جـــيران لنـــا ... انمـــا نحن وهـــم شىء احـــد
حدثونى انهـــا لـــى نفثـــت ... عقدا يا حبـــذا تلك العقـــد
كلمـــا قلت متـــى ميعـــادنا ... ضحكت هنـــد وقالت بعد غـــد

— ٢ —

ضـــقت ذرعا بهجرهـــا

قال لى صـــاحبى ليعلم ما بى ... اتحـــب التتـــول اخـــت الرباب
قلت وجدى بها كوجدك بالمـــاء ... اذا مـــا منعـــت برد الشـــراب
من رســـولى الى الثريا بانـــى ... ضـــقت ذرعا بهجرهـــا والكتاب
ازهقـــت أم نوفـــل اذ دعتهـــا ... مهجتـــى مالقاتلى من متـــاب
حـــين قالت لهـــا اجيبى فقالت ... من دعانى ؟ قالت ابو الخطـــاب
ابرزها مثـــل المهـــاة تهـــادى ... بين خمـــس كواعـــب اتـــراب
فأجابت عند الدعاء كمالبى رجال ... يرجـــون حســـن الثـــواب
وهى مكنونة تحـــير منهـــا ... فى أديم الخـــدين مـــاء الشـــباب
دمية عند راهب ذى اجتهادـــ ... صـــورها فى جـــانب المحراب

وتكتنفهـــا كواعـــب بيـــض ... واضـــحات الخدود والاقراب
ثم قالـــوا تحبهـــا قلت بهـــرا ... عـــدد النجـــم والحصى والتراب
حين شب القتول والجيد منهـــا ... حســـن لـــون يرف كالزوياب
اذكرتني من بهجة الشمس لـــما ... طلعـــت من دجنـــة وســـحابه
فارجحنت فى حسن خـــلق عميـــم ... تتهـــادى فى مشيها كالحبـــاب
تلدوهـــا من القرنفـــل والـــدر ... سخابـــا واهاله من سخـــاب
غصبتني مجاجة المســـك نفســـى ... نسلوهـــا ماذا احـــل اغتصابى

ياليتنى افتـــــدى

ياصـــاحبى اقلا اللوم واحتسبـــا ... فى مستهـــام رمـــاه الشوق بالذكر
ببيضة كمهـــاة الرمـــل آنســـــة ... مفتانـــة الدل ريـــا الخلق كالقمر
ســـيفانه فنق جم مرافقهـــا ... مثـــل المهاة تراعى ناعم الزهـــر
ممكورة الســـاق غرثان موشحها ... حســـانة الجيد واللبات والشعر
لـــو دب ذر رويدا فوق ترشرقها ... لاثر الزر فوق الثـــوب فى ابشر
قالت قريبة لما طال بى ســـقمى ... وانكرت بى انتقاص السمع والبصر
يا ليتنى افتدى ما قد تهيـــم به ... ببعض لحمى وبعض النقص عمرى
قـــد يعلق القلب حبا ثم يتركـــه ... خوف المقال وخوف الكاشح الاشر
دع حبهـــا وتناسى الحب تلق به ... واصبر وكن كصريع قام من سكر
فقلت قولا مصيبا غير ذى خطل ... اتى به حبهـــا فى فطنة الفـــكر
سمعى وطرفى حليفاها على جسدى ... فكيف أصبر عن سمعى وعن بصرى
لو تابعـــانى على ان لا اكلمهـــا ... اذا لقضيت من اوطارها وطرى
دل الفـــؤاد عليها بعض نسوتها ... ونظرة عرضت كانت من القـــدر
وقـــول بكر الم تلمم لنســـالهم ... وانظر فلا باس بالتسليم والنظر
لا انس موقفها وهنـــا وموتفنـــا ... وتريهـــا بترباتا عـــلى خطـــر
وقولهـــا ودموع العـــين تسبقها ... فى نحرها: دين هذا القلب من عمر

***

شاعر هذه الغزليات هو عمر بن ابى ربيعه اشهر شعراء الغزل فى الادب العربى ويكنى « ابا الخطاب » ولد كما يقول صاحب الاغانى ليلة مات الخليفة عمر بن الخطاب وقيل فى التعليق على ذلك اى حق رفع واى باطل وضع . لما عرف عن الشاعر بعد ذلك من ولع شديد بالجمال وتشبيب صريح بالنساء . عاش عمر حياة مترفة لاهية لا هم لـــه الا مطاردة اجمل نساء عصره واستخدام شعره وسيلة لاصطيادهن والتحدث اليهن وجـــاء شـــعره تعبيرا عميقـــا عن حيـــاة الطبقة الاورستقراطية الحجازية فى ذلك العصر كمـــا كان هـــذا الشعر جـــديدا كل الجـــدة فى اسلوبه وفى معانيه والفاظه ولعله اقرب الشعراء العرب القـــدامى من ذوق العصر الحديث ببساطته الشديدة وجرأته وانطلاقه عـــواطف المرأة بمكنون اسرارها . وقد نال الشاعر اعتراف كبار الشـــعراء قال عنه الفرزدق بعد أن سمع نسيبه هذا الذى كانت الشعراء تطلبه

فأخطأته وبكت الديار ووقع هذا عليه وقال جرير « مازال هذا الغلام يهذى حتى قال الشعر وقال صاحب الاغانى نقلا عن الزبير بن بكار ادركت مشيخة من قريش لا يزنون بعمر بن أبى ربيعة شاعرا من اهل دهره فى النسيب ويستحسنون منه ما كانوا يستقبحونه من غيره من مدح نفسه والتحلى بمودته ، وروى صاحب الاغانى قال حدثنا الزبير بن بكار عن عمه مصعب انه قال :

« راق عمر بن أبى ربيعة الناس وفاق نظراءه وبرعهم بسهولة الشعر وشدة الاسر وحسن الوصف ودقة المعنى وصواب المصدر والقصد للحاجة واستنطاق الربع وانطاق القلب وحسن العزاء ومخاطبة النساء وعفة المقال وقلة الانتقال . واثبات الحجة وترجيح الشك فى موضع اليقين وطلاوة الاعتذار وفتح الغزل ونهج العلل وعطف المساءة على العذال واحسن التفجع وبخل المنازل واختصار الخبر وصدق الصفاء ان قدح اورى وان اعتذر ابرا وان تشكى اشجى واقدم عن خبرة ولم يعتذر بغرة واسر النوم وغم الطير واخذ السير وحير ماء الشباب وسهل وقول وقاس الهوى فأربى وعصى واخلى وحالف بسمعه وطرفه وابرم نعت الرسل وحذر واعلن واسر . وبطن واظهر . والح واسف واذل وجنى الحديث وضرب ظهره لبطنه واذل صعبه . وقنع بالرجاء من الوفاء . واعلى قاتله واستبكى عاذله ونفض النوم واعلن رهن منى واهدر قتلاه وكان بعد هذا كله فصيحا »

ان هذا التقييم النقدى القديم لشعر عمر بن أبى ربيعة يعكس تقديرا بالغا لهذا الشعر ولم يحظ شاعر قبله ولا بعده بقدر كبير من الاتفاق على قيمته الشعرية كما حظى عمر بن أبى ربيعة وكان الدكتور طه حسين يرى أن الشعر الغزلى فى العصر الأموى ارفع مكانة وأعلى قيمة من الناحية الفنية وصدق الشعور من الشعر العربى فى كل عصوره وكان الدكتور طه حسين يضع عمر بن أبى ربيعه على راس شعراء الغزل فى العصر الأموى وبهذا يكون عمر بن أبى ربيعه أعظم شعراء الغزل العربى فى نظر الدكتور طه حسين كما يقول فى كتابه حديث الأربعاء .

« نعم . هو زعيم الغزلين من اهل الحضر فى عصره لا يختلف فى ذلك الناس وقد تحس فيما تقرؤه من أخبار هؤلاء الغزليين أن الرواة كانوا يضعون عمر من اهل الحضر بازاء جميل من اهل البادية فكأن عمر كان زعيم الغزل الحضرى حينما كان جميل زعيم الغزل البدوى ولكن شعر جميل قد ضاع ولم يبق لنا منه الا شىء قليل جدا . فلم يبق سبيل الى المقارنة بينه وبين عمر الذى حفظ الدهر لنا شعره كله او اكثره . والذى استقامت لنا اخباره وصحت لنا طائفة من الحوادث المتصلة بحياته فأصبح من اليسير أن ندرسه ونعلن رأيا صحيحا او مقاربا . ومهما تكن مكانة جميل من شعراء البادية والحاضرة فليس من شك فى ان عمر بن أبى ربيعه كان مقدما عليه عند اهل عصره ويجب أن يظل مقدما عليه من الوجهة الفنية . لأنا لا نعرف شاعرا عربيا اموبا افتن

فى الغزل افتنان عمر . فعمر اذن زعيم الغزلين الامويين جميعا لا نستثنى منهم احدا ولا نفرق فيهم بين اهل البادية واهل الحاضرة . بل نحن نذهب الى ابعد من هذا فنزعم أن عمر بن ابى ربيعه زعيم الغزلين فى الادب العربى كله على اختلاف ظروفه وتباين أطواره منذ كان الشعر العربى الى الآن » وهذه الحقيقة التى يعلنها الدكتور طه حسين تقترب من المجازفة العملية وتتفق مع الآراء التى تلجأ الى التعميم وهى سمة بعض النقاد القدامى . ولا شك أن الاعجاب والتعاطف هو الذى يقود مثل هذه الاحكام المطلقة ولا يملك المعارضون لموقف الدكتور طه حسين كثيرا من الحجج لدحض رأيه لأن عمر بن ابى ربيعه فى الواقع قد تجاوز بعذوبة شعره وصحة فهمه للشعر والمرأة على السواء كل شعراء عصره بل لقد استطاع أن يتجارب مع كل العصور وهو أقرب الى ذوقنا وسلوكنا من كل الشعراء الآخرين . وقد صور شعر عمر كما تصور هذه الغزليات التى اخترناها عددا هائلا من العلاقات الغرامية التى تبدو من خلال صدقه الفنى حقيقية على المستوى الواقعى . فأسماء الحبيبات فى شعره يتجاوز الأرقام القياسية لشعراء عصره والعصر الذى سبقه فهو يحب كل جميلة وهو يبدو صادقا فى حبه ولقد اثار هذا الموقف كثيرا من الجدل حول طبيعة عاطفة هذا الشاعر الذى ينتقل كالفراشة من زهرة نضرة الى زهرة اخرى اشد نضارة دون أن يرى فى ذلك غضاضة او نوعا من التشكيك فى وفائه كان اخلاص عمر الحقيقى للجمال اينما وجده . كان الحب المطلق قضيته المطلقة ولم تكن امرأة واحدة بقادرة على صرفه عن هذا الهوى العنيف الجارف لكل امرأة جميلة اخرى : ولقد اتهم عمر بالنرجسية فى غرام ذاته والولع بنفسه حتى ليظن قارىء شعره انه كثيرا ما كان يتغزل فى نفسه بدل التغزل فى المرأة ولكن الدكتور طه حسين يرى فى هذا الولع بالذات تجاوبا مع تهافت النساء عليه وولعهن به بقول الدكتور طه حسين :

« لم يكن عمر مغرورا ولا تياها . كما انه لم يكن كاذب الحب ولا متكلفه وانما كان صادقا الحب حقا قويا ايضا سنقول . فكيف يلائم ذلك ما زعمت من أنه كان عذريا ولم يكن يذهب مذهب جميل ؟ بل كيف يلائم ذلك ما ذكرت من انه كان يتابع النساء جميعا بحبه لا يكاد يدع امرأة الا ليعرض لأخرى وربما اشتغلت نفسه فى وقت واحد بغير امرأة ؟ كان هذا كله حقا وكان عمر بن ابى ربيعة مع ذلك صادقا الحب قويه ايضا . ذلك لانه لم يكن عذريا . لم يكن يحب بمثله ولا بقلبه وانما كان يحب بحسه وبحسه ليس غير كما قلت آنفا لم يكن حسه يطيع قلبه فيرى الجمال فى عشيقته ويميل اليها وانما كان قلبه طوع حسه فكان يكفى أن يرى جمال المرأة ليخلع عليها ما شاء له الشعر من الصور الرائعة الخلابة . وليجد بها ما شاء له الحب من وجد لا حد له . كان عمر يرى كلما احب امرأة أنه لم يحب قط امرأة كما احبها وانه لن يسلو عنها مهما تتبدل الاحوال وتختلف صروف الحياة . وكان صادقا فى هذا كله . ولكنه لم يلبث أن يقول هذا الشعر حتى يحب امرأة جديدة حبا ليس له بمثله عهد ولن يكون له بمثله عهد ولن يجد سبيلا الى الانصراف

عنه . ومصدر هذا أن قلبه كما قلت يتبع حسه وأن النساء كن مفتونات به فكان لا يكاد يقف عند مظهر من مظاهر الجمال حتى يخلبه مظهر آخر . وكان لا يكاد يسمع ثناء امرأة حتى يسنهويه ثناء امرأة أخرى فكان طمعه متصلا وأمله لا حد له .

يتضح من الغزلية الأولى « هند » مذهب عمر بن أبى ربيعة كاملا فى الصياغة الشعرية فهو يعمد الى اختيار ارق الالفاظ واسهلها واجملها ايضا ليصور بها تجربته الشعرية التى تتخذ من المرأة محورها . كما أنه ابتكر فن الحوار مما جعل القصيدة تتدفق حيوية وتتخذ طريقا الى النمو المستمر بحيث نستطيع ان نقول ان البناء الدرامى هو من أبرز خصائص شعر ابن ربيعه . انه لا يفرض مشاعره الخاصة على الموقف وانما هو يعرض الموقف كله كاملا امامك لتتأثر به كما تشاء وتفسره كما تهوى فهو بهذا يعد اقرب الشعراء الى المفهوم العصرى للشعر فلا تستطيع أن تقول انه شاعر رومانسى يجعل من شعره صورة لهمومه الذاتية بل هو شاعر واقعى يجعل من شعره مرآة بارعة تعكس صورة المرأة العربية وبيئتها ويكشف بخياله الخصب عالم هذه المرأة وخصائصها وحيلها ودهاءها وافتتانها به ايضا . انه اول شاعر يواجه المرأة بحقيقة مشاعرها ولذا فقد نال اعجابها لأنه فهمها ونطق بهذا الفهم . فهذه الصورة المألوفة التى تصورها القصيدة الأولى تعكس خبرة حقيقية بعالم النساء . فها هن يجتمعن معا ولا يكون لهن من حديث الا الحب والهوى . وتسأل هند اترابها عن محاسنها كما يصفها الشاعر وتريد أن تستوثق ان هذا الوصف الجميل وصف صادق وحقيقى لتطمئن نفسها الى جمالها ويكون لها الحق فى الفخر بهذا الغزل الذى يوجهه لها عمر بن أبى ربيعه . والحبيبة تبدو ساذجة لأنها لا تدرك أن مشاعر النساء يغلب عليها الحسد . هى تسألهن هل هى جميلة حقا كما يصفها عمر . ولكن النسوة يتضاحكن ويقلن لها ان الحب هو الذى يجمل المحبوب « حسن فى كل عين من تود » اى ان حسنها هو حسن خاص لا يراه الا عمر وليس حسنا موضوعيا يراه الجميع وقبل أن تفجع هند بهذا الراى يكشف لها عمر عن خبيئة اسرار هؤلاء النسوة فيقول لها ان الحسد هو الذى دفعن الى هذا الانتقاص من جمالها .

حسد حملنه من شأنها وقديما كان فى الناس الحسد

ثم استمر الشاعر فى وصفها بهذه الاوصاف الحسية المؤثرة التى يعرفها البدوى والحضرى على السواء فهى باردة فى القيظ وساخنة فى البرد فيالها من متعة رائعة تمنحها له الحبيبة . والشاعر فى هذه القصيدة يستخدم اسلوبا عصريا تستخدمه القصة والشعر والمسرح والسينما فى عصرنا ايضا فهو يعود الى الماضى ليلتقط منه المشاهد التى تساعد على تطور الحركة الدرامية ونموها ولذا نراه فى الختام يعود الى الموقف الاول عندما تعرف عليها وحاول ان يؤكد لها قرابة أهله من اهلها والصداقة التى تربط الاسرتين وكأنه يحتال بتلك الحيلة للحصول على

رضـــاها طمأنتهـا من ناحيـــة اخرى . ثم يختتم قصـــيدته بهذا اللهو العابث الذى بدأ به القصـيدة وهو طلب موعد معها ومراوغتهـا فى ذلك .

كلمـــا قلـت متى ميعـــادنا ضحكت هنـد وقالت بعـد غـد

وكما قال الشاعر فهى دائما مخلفة للوعد . انك تخرج من القصيدة بمتعة حسية تروح عن نفسك فهو لا يبكى ولا يتأوه لانها اخلفت وعده لانه يعـرف انها لابد أن تجىء فى النهـاية وان هـذا دلال المرأة الطبيعى . انـه اذن شـاعر يتميـز أسـاسـا بفهمـه العميق لطبيعـة المـرأة ودلالها ومراوغتها وانها تحب هذا اللهو منه وهذا العبث ولذا كان الاعجاب به عظيمـا .

أما الغزلية الثانية فقد كرسها الشاعر للوصف وان كان الشاعر لم ينس أن يعبر عن مشاعره أيضا حين يقول أن وجده بها كوجدك بالمـاء البارد ولا ينسى الشاعر ان يدير حوارا بينه وبين صاحبه وبينها وبين جاريتها وها هو يصف عظيم حبه لها حين يقول .

ثم قالـوا تحبهـا ؟ قلت بهـــرا عـدد النجم والحصى والتـــراب

ان القتول هنا محجوبة الى حد ما وهى لا ترى الا محاطة بالحسان اترابها والشاعر مولع بتصوير مجتمعات النساء حيث يتيح هذا فرصة لنمو الحركة الدرامية اكبر ويكون الكشف عن مكنون اسرارهن اعظم لان النساء اذا اجتمعن تصارحن . أما الغزلية الثالثة فهى تتحدث عن دفاع الشاعر عن نفسه أمام عذاله . وقد نصحته قريبة له بان يترك هذا الحب خوف المقال وخوف الكاشح الاشر فاذا به يفصح عن اصراره وعزمـه على التمسك الشديد بهذا الحب وهنـا نلتفت الى معنى جديد تماما . فالناصحة له تصور حبه كسكرة ينبغى أن يفيق منها ودلالة هذا المعنى انه ربما وقع فى هذا الحب دون وعى منه . وهى تشير بهذا أو توصى بأنه مجرد وهم عليه أن يتركه ولكن الشاعر ينتفض بعد أن فهم المعنى فيؤكد أن هـــذا الحب قد أتاه وهـو فى قمـة اليقظـــة والوعى والفهم فهـو حب اليقظـة التامة ومعنـــاه أنه حقيقى الى ابعـــد الحدود لانه يعرف بوعيـه مزايا هذه الحبيبـــة وحقيقة جمالها فما أجمل قول الشاعر :

قالت قريبـة لمـا طال بى سـقمى ... وأنـكرت بى انتقاص السمع والبصر
يا ليتنى افتدى ما تهيـم بـــه ... ببعض لحمى وبعض النقص من عمرى
قـد يعلق القلـب حبـا ثم يتـركه ... خـوف المقال وخوف الكاشح الاشر
دع حبها وتنـاسى الحب تلق به ... واصـبر ولكن كصريع تام من سـكر
فقلت قـولا مصيبا غير ذى خطـل ... اتى بـه حبهـا فى فطنـة الفـكر
سمعى وطرفى حليفاها على جسدى ... فكيف أصبر عن سمعى وعن بصـرى

وربما كانت أوصاف عمر للمرأة أوصافا خارجية حسية ولكنها في الواقع تعكس حرارة قوية تعكس صدقا نفسيا وفنيا يتأكد في هذه الصياغة الشعرية الرفيعة وفي هذا الاحساس العميق بمشاعر المرأة وصبواتها ونزواتها .

لقد كانت خبرة الشاعر بمعالم النساء وفهمه لنفسيتها ودرايته العظيمة بالشعر كانت كل هذه العناصر سببا في هذا التوفيق التي لاقاه معهن واعجابهن الشديد به . ولقد كان لعمر بن أبي ربيعة أسلوب جديد ومنهج مبتكر عرف به ومنحه لتراث الشعر العربي وللأجيال اللاحقة له . فكان فتحا جديدا في عالم الشعر وفي عالم فهم المرأة على السواء وبهذا فقد كان حظه العظيم من الحب والاعجاب عادلا على الدوام .

« فى الحب »

للعباس بن الاحنف

القصـــــيدة

غضـــــب الحبيب فهـــــاج لى اســـتعبار
واللـــــــه لى ممـــــا احـــاذر جـــار
كنـــا نغـــايظ بالوصـــال معـــاشرا
لهم الغـــــداة بصر منـــا اســـتبشار
اذ لا ارى شـــــــكلا يـــكون كشـــكلنا
حســـــنا ويجمعنـــا هنـــاك جـوار
وكاننـــــــا لـــم نجتمـــع فى مجلـــس
فيـــــه الغنـــاء ونرجس وبهـــــار
مـــا كـــان اشـــأم مجلســـا كنـــابه
تلك العشـــية والعـــدا حضـــــار
مدنيـــــة امس العـــــراق محلهـــــا
ولهـــــا بـــزوراء المدينـــــــة دار
ادنـــــى قرابتنـــــا اليهـــــا اننـــا
شخصـــــان يجمعنـــــا اليـــه نزار
يـــا ايهـــا الـــرجل المعـــــذب قلبـــــه
اقصـــر فـــان شـــــفاءك الاقصـــــار
نـــزف البـــكاء دمـــوع عينـــك فاســـتعر
عينـــــا لغـــــيرك دمعهـــــا مـــدرار
من ذا يعـــــيرك عينـــــه تبـــكى بهـــا ؟
ارايت عينـــــا للبـــكاء تعـــــار
الحـــب اول مـــا يـــــكون لجاجـــة
تـــأتى بـــه وتســـوقه الاقـــــدار
حتى اذا اقتحـــم الفتى لجـــــج الهـــوى
جـــاءت امـــور لا تطـــاق كبـــــار
واذا نظـــــرت الى المحـــب عرفتـــه
وبـــدت عليـــه من الهـــــوى آثـــار
قـــل مـــا بـــدا لـــك ان تقـــول فربمـــا
ســـاق البـــلاء الى الفتى المقـــدار
يا فـــوز هـــل لـــك ان تعـــودى للـــذى
كنـــا عليـــه منـــذ نحن صـــــغار
فلقـــد خصصـــتك بالهـــوى وصرفتـــه
عمـــن يحـــــدث عنـــكم ويغـــار

هـــل تذكـــرين بـدار بـكر لهـــونا
ولنـــــا بـذاك مخافـــة وحـــــذار
متطـــاعمين بريقنـــــا فى خلـــوة
مثـــل الفـــراخ تزقهـــا الاطيـــــار
ام تذكـــــــرين لـدجلتى متنـــكرا
وعـــلى فـــروا عـــائق وخمـــــار
فـــــوددت ان الليـــــل دام وانـــــه
ذهب النهـــــار فـلا يـكون نهـــار
انمـــا لذلـك حـــــرمة محفـــوظة
اف لـــن هـــو قاطـع غـــــدار
ســـاقر بالذنب الـــذى لم اجنـــــه
ان كـــان ينفـــع عنـــدك الاقـــرار
مـــا تأمـــرين فدتـك نفسى فى فـــتى
مـــا تلتقى لجفـــونه اشـــــفار
من كـــان يبغضـكم فبـــات مبيتـــه
ان الهـــوى لـذوى الهـــوى ضـــرار
صـــرم الاحبـــة حبـــله فـكانـه
اذ غـــادروه وضـــره الاضـــرار
رجـــل تطاول ســـقمه فى غـــربة
نـــزحت بـــه عـــن اهـــله الاســـفار
لا يســـتطيع من الضـــرورة حيـــلة
امســـى يـــرجم دونـــه الاخبـــار
حتى اتيـــح لـــه وذاك لحينـــه
ركـب رمت بهـم الفجـــاج تجـــار
حمـــلوه بينهـم نحيـــلا جســـمه
عـــارى العظـــام ثيـــابه اطمـــار
فشـــوى تقلبـــه الاكـــف ملتفـــا
ولـــه تشـــد وتوضـــع الاكـــوار
حتى اذا ســـلكوا بـــه فى مهمـــه
قفـــر تضـل بـــه القطـــا وتحـــار
غرضـــوا من النضـــو النحيـــل فعطـــلوا
منـــه الـــركاب وخلفـــوه وســـاروا

***

هذه القصيدة واحدة من اعذب شـــعر العباس بن الاحنف مع ان معظم اشعاره عذبة رقيقة تخالط النفس فتبهجها ورغم حزنها فهى تسرى عن الحزين . عرف العباس بالولع الشديد بالجمال ولكنه ولع يختلف عن غيره من الغزلين امثال عمر بن ابى ربيعة وابى نواس والاحوص وغيرهم فلم يكن متقلبا فى حبه رغم انه ذكر اسماء بعض النساء غـير فوز التى عرف بهـا فقـد ورد فى شـــعره ذكر ظلوم وذلفـــاء ونرجس ونسرين

وسحر وضياء وربما كانت هذه الاسماء كلها اقنعة لفوز نفسها التي حظيت بمعظم شعره . وحتى فوز هذه انما هي الاخرى قناع لامرأة بغدادية احبها العباس بن الاحنف ومنعه العرف الاجتماعي واسباب كثيرة اخرى من التصريح بها . ولقد اشتهر العباس بن الاحنف بالعفة في الغزل كما يقول مؤرخو حياته ومنهم صاحب الاغاني حيث يقول « وكان العباس شاعرا غزلا ظريفا ومطبوعا من شعراء الدولة العباسية وله مذهب حسن ولديباجة شعره رونق . ولمعانيه عذوبة ولطف ولم يكن يتجاوز الغزل الى مديح ولا هجاء ، ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني وقدمه أبو العباس في كتابه الروضة على نظرائه واطنب في وصفه وقال رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه قال وكان العباس من الظرفاء ولم يكن من الخلعاء وكان غزلا ولم يكن فاسقا وكان ظاهر النعمة ملوكي المذهب شديد التترف « من الترف » وذلك بين في شعره وكان قصده الغزل وشغله النسيب وكان حلوا مقبولا غزلا غزير الفكر واسع الكلام كثيرا التصرف في الغزل وحده ولم يكن هجاء ولا مداحا » . وواضح من هذا النص الذي اورده صاحب الاغاني أن العباس كان من شعراء الطبع لا من شعراء الصنعة له منهج شعري متميز يروق لاهل عصره يجعل لشعره بها ولالفاظه عذوبة وانه كان ينتمي من الناحية الاجتماعية الى الطبقة الراقية التي يصرفها الغني عن التماس الكسب من الوجوه التي كان يعرفها الشعراء في ذلك العصر . فلم يكن العباس في حاجة الى مدح ولا الى هجاء ذلك انه كان مترفا لديه ما يدنيه شأنه شأن غيره من عشاق الشعراء الذين كان لهم من رفعة المكانة الاجتماعية ووفرة المال ما يدفعهم الى التفرغ للحب والشعر مثل عمر بن ابي ربيعة على بعد ما بينهما في الاسلوب الشعري ومنهج الاداء وطبيعة التكوين ويبدو انه كان وسيما لبقا محبوبا من الناس كانوا يتولون عنه « كان والله ممن اذا تكلم لم يحب سامعه أن يسكت وكان فصيحا جميلا ظريفا اللسان لو شئت ان تقول كلامه كله شعر لقلت » واذا كانت هذه هي خصال الشاعر فانها كانت الخصال الضرورية لنجاح شاعر في بغداد وفي عصر الرشيد . لقد تهيأت له كل المواهب التي ترشحه شاعر الطبقة المترفة اللاهية وكان احرى به ان يكون متقلبا في حبه استجابة للاقبال عليه نظرا لصفاته ولكنه كان عفيفا احب امرأة واحدة وابدع في التشبيب بها كل شعره تقريبا فهو اذن قد خرج على سنة غيره من الشعراء ممن وهبوا مثل ما وهب فهل كان ذلك لضعف فيه أم لقوة اخلاقية وما تعليل هذه العفة التي تصرح بها معظم ابيات شعره في عصر احتفى بالمجون واللهون والغزل الحسي والغناء ومجالس الطرب يرى الدكتور زكي مبارك ان عفة العباس لم تكن علامة ضعف حيث يقول « المعروف علميا أن الشهوة قوة لانها اقتحام وانتهاب وان العفاف ضعف لانه زهد وانسحاب والعاشق المنتهب اقوى شعورا من العاشق المنسحب فهو بذلك اقدر على الغزل الساحر والتشبيب الفتان فكيف نعد العفاف من مزايا الشاعر أو العاشق .. افترع الحقيقة فاقول : ان العفاف لا يكون من علائم الضعف الا ان كان عفاف العاجزين

وانه يكون اعظم قوة حين يصدر عن الرغبة فى التصون ومن حق الرجل ان يجاهد هواه ليضاف الى الاشراف وتلك غاية يتطلع اليها اكابر الفتيان ومن هنا تظهر قيمة الصدق العذب فى هذين البيتين :

اتاذنون لصب فى زيارتكم
فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضمر السوء ان طال الجلوس به
عف الضمير ولكن فاسق النظر

هذه عذوبة الصدق . وهى نهاية السمو الخلقى فالعشق الذى يصدر عن النظر غير دنس وهو ليس بآثم عند ضمان عفة الضمير . وان العباس فصل فى قضية اخلاقية كانت فى جميع العهود مما يشغل رجال الاخلاق والمهم هو النص على ان عفاف هذا العاشق عفاف أوحت به نية صحيحة والنيات الصحاح هى الاصل فى التماسك الاخلاقى وبدونها لا يقوم للاخلاق بنيان » اذن فالعباس لم يكن ضعيفا والا لما قاوم غرائزه وأغلب الظن أن العصور التى تموج بالتيارات الحسية وجد فيها اللهو مرتعا فسيحا للنزوات البريئة وغير البريئة كثيرا ما نطرح الجانب الاخر المضاد للمزاج السائد فرغم غلبة مزاج أبى نواس على عصر الرشيد فقد كان هذا العصر فى حاجة الى توازن لا يقيمه الا ظهور مزاج مضاد . وتلك مزية هامة للعصور الذهبية التى تسمح دائما بوجهة النظر الاخرى نظرا لان العصر نفسه يتسع حضاريا ويتعمق كلما تنوعت داخله الانماط الانسانية والسلوكية والابداعية لقد جاء العباس بن الاحنف ليواجه مزاج أبى نواس وامثاله ولان العباس كان من طبقة غنية مترفة فقد جاء سليلها غنى النفس وليست هذه قاعدة بالطبع ولكن المعروف عن هذه الطبقة فى عصر الرشيد انها كانت تعنى أتم العناية بتعليم وتهذيب أبنائها رغم ان العباس ابن الاحنف لم يسلم من المتزمتين فى عصره الذين رأوا فى نجاح شعره نوعا من المفتنة للشباب والفتيات والحقيقة أنه بدون شعر العباس ابن الاحنف لكانت لوحة الحياة الاجتماعية والفنية فى العصر العباسى الاول شديدة النقص والاختلال ، فقد كان شعره أرق من شعر غيره واعذب وقد رشحته هذه الرقة والعذوبة للغناء والعصر العباسى كان عصر غناء وطرب فقد زود الموسيقيين والمطربين بأغانيهم الجميلة التى كانت فى الوقت نفسه لا تجاهر بالخروج على مواضعات المجتمع وتقاليده وكثيرا ما كان هذا الشعر ينشد فى المجالس على شفاه المغنيين والمغنيات كما كان يستخدم فى المصالحات والمعاتبات بين العشاق ثم أن هذا الشعر قد جاء ليقف فى المنتصف بين شعر الزهد الذى اشتهر به ابو العتاهية وبين شعر الحس الذى اشتهر به بشار بن برد وأبو نواس فهو واسطة بين طرفين تباعد ما بينهما ولهذا استقبلته الاذواق أحسن الاستقبال . واذا كان العباس لم يسخر شعره للتكسب فقد جلب عليه هذا الشعر الكثير من الاعجاب والحب وبعض الهدايا أيضا واذا كان العباس بن الاحنف قو وقف شعره على الغزل فقد

راى البعض فى ذلك فقـــرا فى اغانيه الشعرية ولكن الحقيقة أن تخصصه لم يمنعه من التفنن فى الموضوع الاثير لديه وهو الحب وان هذا القول الذى يزعم بأن عدم تنوع الموضوع يحرمه من الاجادة يشبه من يقول بأن من يخلص حبه لامراة واحدة فقد حرم متعة الحب .

ان تجربة الشاعر الاساسية غالبا ما تكون تجربة واحدة تتفرع الى محاور جانبية ولم يقل أحد بأن العبرة بتنوع التجربة مادامت التجربة الفنية بالغـــة النضج والعمق والعذوبة وهى سمات أساسية فى شعر العباس ابن الاحنف ـــ اذا تاملنا هذه القصيدة التى تحمل فى الديوان عنـــوانا مختلفا هو « اثمار عين البـــكاء ! » والتى اخترنا لها الحب عنـــوانا لانه اصبح دلالة مراده اذا تاملنـــا هـــذه القصـــيدة بهرتنا هـــذه العذوبة التى تفيض بهـــا الفاظها وان كانت البـــداية تحمل لنا صـــورة من الغضب والخـــوف دفعا بالشـــاعر الى أن يستجير بالله من غضب حبيبه . وخوف الحبيب الـــذى يصـــل الى حد الجزع والهلع من غضب حبيبه يطلعنـــا على مـــدى ما تـــكنه جوانحـــه لهـــذا الحبيب انه الحب العظيم الذى يخشى عليـــه من الهجـــر ولعـــل هذا يذكرنا بالبيت الذى يقـــول :

اهابـــك اجـــــلالا ومـــا بـــك قـــــدرة
علي ولـــكن مـــلء عـــين حبيبهـــا

هو خوف الحريص لا خوف النافر الكاره . يرسم الشاعر صـــورة لشماتة حســـاده فيـــه بعد أن كان يغيظهم بالوصل وأراد الشـــاعر انه لم يكن يســـلم من مضايقتهم له أيضا وذلك باســـتعمال لفظ «يغايظ» التى تدل على المفاعلة ويبـــدو أن الغضب قد حـــدث اثنـــاء جلوســـهم مع بعض حســـادهم الذين ربما أوقعـــوا بينهم فهـــا هـــو يتشاءم من هذا المجلس الذى كان فيه ويبدو أن الشاعر قـــد عانى بسبب خوفه على حبيبه عذابا واهوالا وكأنه أصبح يشفق على نفســـه بعـــد أن كان يشفق من هجر الحبيب فنراه يخاطب نفسه خطابا جهيرا يستخدم هذه الكلمة الشديدة الدلالة على النداء والتنبيه « يا أيها » كان ينادى شخصا بعيدا عنه وهذا يعنى انه كان ذاهلا عن التفكير بالجزع الذى اصـــابه فاستخدم اداة قوية ليجذب وعيه الى التدبر فى الامر . وها هو يستخدم مرة اخرى فعل الامر « اقصر » بلهجة قاطعـــة تتلوها جملة تقـــريرية مباشرة اقرب الى النثر لانه يخاطب بها العقل فهى كلمة قاطعة صـــارمة « ان شفاءك الاقصار » ثم عدل عن فعل الامر الى رســـم صـــورة مؤثرة تبدا بالفعل الماضى « نزف » وهى كلمة توحى بنفاذ الدمع وبـــدء انسكاب الدماء انه بعد أن يرسم الصورة يوحى لنا بنوع من الســـخرية الخفيفة امام اصراره على البكاء . ان كنت مصرا على البـــكاء فان عينك لم تعد تصلح لذلك فاستعر عينا لغـــيرك تكون كثـــيرة الدموع ـــ يا لها من سخرية موجعة تاتى بنا الى اجمل ابيات القصيدة وكأنه بهذا الاستفهام

الانكارى ينبهه الى السخرية السوداء التى يوجهها نحوه وكأنه يريد أن يوقظ عقله مرة اخرى ليتدبر ما هو فيه فيقول :

من ذا يعيرك عينه تبكى بها
أرأيت عينا للبكاء تعار

انه يفترض ان المخاطب قد صدقه وانه سوف يستعير عينا يبكى بها فيبالغه بهذا الاستفهام الانكارى الذى يهدف الى التوبيخ والزجر . ثم بدأ يصف الحب ليكشفه لعينه وكأنه لا يعرفه .. ان الشاعر يجرد من نفسه شخصا آخر يتوجه له بالنصح ولكنه ما يلبث أن يضيق بهذه اللعبة التى لا جدوى من الاستمرار فيها فيتجه الى فوز محبوبته يحاول أن يستميلها اليه بدلا من محاولة الاقلاع عن حبها وهى محاولة يعرف هو قبل ناصحه فشلها . هو يذكرها بأسعد الايام « أيام الطفولة » وأكثرها فتنة ويستعير من عالم الطير صورة الشعرية .

متطاعمين بريقنا فى خلوة
مثل الفراخ تزقها الاطيار

وما أجمل هذه الامنية التى يعلنها الشاعر كما اعلنها قبله كل الشعراء انها امنية دوام الليل الذى يجمع العشاق وغياب النهار الذى يفرقهم .

فوددت أن الليل دام وأنه
ذهب النهار فلا يكون نهار

انه لا يرجو غياب نهار واحد بل يتمنى غياب جنس النهار كله وبعد أن يمعن فى عرض الصور الجميلة يبدأ فى العتاب ثم يصل الى الاقرار بالذنب ويظل فى خضوعه الى أن يضع نفسه فى خدمتها . الى أن يأتى الى نهاية القصيدة فيجسد لنا صورة بالغة الهول والوحشة تزلزل الكيان انها صورة يضمنها ما بداخله من احساس قوى بفقد انها وكأنها بتخليها عن حبها له تشبه ذلك المريض الذى ثقل على رفاقه فى الطريق فأخذوا منه راحلته وتركوه فى الفلاة وحيدا لانهم يئسوا من شفائه . وكأنه يقول لها انها تشبه هؤلاء الرفاق الذين تركوا رفيقهم للموت وبهذه النهاية تصل القصيدة الى قمة الاستعطاف وقمة الاستغفار لهذا الذنب الذى جلب عليه الغضب . هذا هو العباس بن الاحنف لا يدل بشاعريته ولا بوسامته ولا بجاهه الاجتماعى وترفه على حبيبته وانما هو عاشق يخضع لقانون الحب وسلطانه يكون حيث شاء له الهوى أن يكون يحمل شعره كل خصائصه النفسية وتكوينه الروحى الذى جعله يذوب رقة ونحولا . واذا كان قد اخلص حبه لامرأة من النساء فقد جاء شعره هو الاخر مرآة لهذا الاخلاص العميق الذى يندر حدوثه معبرا عن شاعرية نادرة الوجود .

« ته دلالا فانت اهـل لذاكا »

للشاعر الصوفي عمر بن الفارض

القصـــيدة

تـــه دلالا فانت اهـــل لذاكـا ... وتحـكم فالحسن قـد اعطـــاكا
ولـك الامـر فاقض ما انـت قاض ... فعـــلى الجمـــال قـــد ولاكا
وتـلافى ان كـان فيـــه ائتلافى ... بك عجـــل بـــه جعلت فـــداكا
وبما شـئت فى هـواك اختبـرنى ... فاختيـــارى ما كـان فيـــه رضاكا
فعـلى كـل حالـة انت مـنى ... بى اولى اذ لـــم اكـــن لولاكا
وكفـــانى عـــزا بحبـــك ذلـى ... وخضـــوعى ولست من اكفاكـــا
واذا مـــا اليـك بالوصـل عـزت ... نسـبتى عـــزة وصـح ولاكـــا
فاتهـــامى بالحب حسـبى وانـى ... بـين قومـى أعـــد من قتلاكا
لـــك فى الحى هالـك بـك حـى ... فى سبيل الهوى استلذ الهلاكا
عبـــد رق مارق يوما لعتـــق ... لـــو تخليت عنـــه ما خـلاكا
بجمـــال حجبتـــه بجـــلال ... هام واستعذب العـــذاب هناكا
واذا مـــا امن الرجـا منـه ادنـا ... ك فعنـــه خـوف الحجى اقصاكا
فباقـــدام رغبـة حـين يغشـا ... ك باحجـــام رهبـــة يخشاكا
ذاب قلبى فـاذن لـــه يتمنـــا ... ك وفيـــه بقيـــة برجـــاكا
او مـــر الغمض ان يمـــر بجفنى ... فكانى بـه مطيعـا عصـــاكا
فعسى فى المنـام يعـــرض لى الو ... هم فيـــوحى سرا الى ســـراكا
واذا لـم تنعـش بـروح التمـنى ... رمتى واقتضـى فنـائى بقـــاكا
وحمت ســـنة الهوى سنة الغمض ... جفـــونى وحـــرمت لقيـــاكا
ابق لـى مقـــلة لعـلى يومـا ... قبـــل موتى ارى بهـا من راكـا
اين منى ما رمت هيهـــات بل اين ... لعينـى بالجفـــن لثـم ثـــراكا
فبشـيرى لـو جـاء منـك بعطف ... ووجـودى فى قبضـتى قلت هاكـا
قـد كفى مـا جرى دمـا من جفون ... بـك قرحى فهل جـرى ما كفـاكا
فاجـــر من قـلاك فيـك معـنى ... قبـل أن يعـرف الهـــوى بهواكا
هبـك ان الـلاحى نهـــاه بجهل ... عنك قـل لى من وصـله من نهاكا
والى عشـــتك الجمـــال دعاه ... فالى هجـــره تـرى من دعاكا
أتـرى من افتـــاك بالصـــدعنى ... ولغـــيرى بالـــود من افتـــاكا
بانكســـارى بـذلتى بخضـوعى ... بانتقـــارى بفـاقتى بغنـــاكا
لا تـــكلنى الى قـــوى جلد خان ... فـانى اصـــبحت من ضـــعفاكا
كنت تجفـــو وكان لى بعض صبر ... احسن اللـه فى اصطبارى عزاكا
كم صـــدودا عســـاك ترحم شـكوا ... ى ولو باستماع قـولى عســـاكا
شـــنع المرجفون منـك بهجـرى ... واشـاعوا انى ســـلوت هواكـا
ما بأحشـــائهم عشـــقت فاســـلو ... عنـــك يومـا دع يهجروا حاشاكا

كيف اسلو ومقلتى كلما لاح ... بريق تلفتت للتباكا
ان تبسمت تحت ضوء لثام ... او تنسمت الريح من انباكا
طبت نفسا اذ لاح صبح ثنايا ... ك لعينى وفاح طيب شذاكا
كل من فى حماك يهواك لكن ... انا وحدى بكل من فى هواكا
فيك معنى حللاك فى عين عقلى ... وبه ناظرى معنى حلاكا
فتت اهل الجمال حسنا وحسنى ... فبهم فاقة الى معناكا
يحشر العاشقون تحت لوائى ... وجميع الملاح تحت لواكا
ما ثنانى عنك الضنى فبماذا ... يا مليح الدلال عنى ثناكا
لك قرب منى ببعدك عنى ... وحنو وجدته فى جفاكا
علم الشوق مقلتى سهر الليل ... فصارت من غير نوم تراكا
هجذا ليلة بها سدت اسرا ... ك وكان السهاد لى اشراكا
ناب بدر التمام طيف محيا ... ك لطرفى بيقظتى اذ حكاكا
فترايت فى سواك لعين ... بك ترت وما رايت سواكا
وكذاك الخليل قلبه تلى ... طرفه حين راقب الافلاكا
فالدياجى لنا بك الان غر ... حيث اهديت لى هدى من ثناكا
ومتى غبت ظاهرا عن عيانى ... الفه نحو باطنى القاكا
اهل بدر ركب سريت بليل ... فيه بل سار فى نهار ضياكا
واقتباس الانوار من ظاهرى غير ... عجيب وباطنى مأواكا
يعبق المسك حيثما ذكر اسمى ... منذ ناديتنى اقبل كانا
ويضوع العبير فى كل ناد ... وهو ذكر معبر عن شذاكا
قال لى حسن كل شىء تجلى ... بى تملى فقلت قصدى وراكا
لى حبيب اراك فيه معنى ... غير غيرى وفيه معنى اراكا
ان تولى على النفوس تولى ... او تجلى يستعبد النساكا
فيه عوضت عن هداى ضلالا ... ورشادى غيا وسترى انتهاكا
وحد القلب حبه فالتفانى ... لك شرك ولا ارى الاشراكا
يا اخا العذل فى من الحسن مثلى ... هام وجدا به عدمت اخاكا
لو رايت الذى سبانى فيه ... من جمال ولن تراه سباكا
ومتى لاح لى اغتفرت سهادى ... ولعينى قلت هذا بذاكا

***

— شاعر هذه القصيدة هو سلطان العاشقين ابو حفص عمر بن الحسن على بن المرشد بن على ويعرف بابن الفارض وينعت بشرف الدين ولد عام ٥٧٦ هـ بمدينة القاهرة وتوفى بها عام ٦٣٢ هـ نشأ نشأة صوفية دينية فى كنف والده ابن الفارض الذى كان احد كبار علماء الدين فى عصره ، وقد ولى مناصب هامة متعددة منها نيابة الحكم وعرض عليه منصب قاضى القضاة ولكن والد الشاعر رفض هذا المنصب الخطير واثر عليه التصوف والتعبد لله بقاعة الخطابة بالجامع الازهر وظل كذلك الى ان ادركته الوفاة وكان والد الشاعر وافدا من حماة الى مصر . وفى ظل مثل هذا الاب الزاهد كانت البيئة الاولى التى بثت فى وجدان الشاعر حب الله والزهد فى متاع هذه الدنيا وينقل الدكتور محمد

مصطفى حلمى عن ابن العماد فى كتابه شذرات الذهب صورة لهـــذه النشاه الاولى فيقول: «نشأ تحت كنف ابيه فى عفاف وصيانه وعباده وديانة بل زهد وقناعه وورع أسدل عليه لباسه وقناعه فلما شب وترعرع اشتغل بفقه الشافعية واخذ الحديث عن ابن عساكر ومن الحافظ المندرى وغيره ثم حبب اليه الخلاء وسلوك طريق الصوفيه فتزهد وتجرد وســـار يستاذن اباه فى السياحة فى الجبل الثانى من المقطم ويأوى الى بعض اوديته مره وفى بعض المساجد المهجورة فى خرابات القرافه مرة ثم يعود الى والده فيقيم عنده مدة ثم يشتاق الى التجرد ويعود الى الجبل وهكذا حتى الف الوحشـــة والفه الوحش فصار لا ينفر منه ومـــع ذلك لم يفتح عليه بشيء حتى اخبره شيخه البقال انه انما يفتح عليه بمحه فخرج فورا فى غير اشهر الحج ذاهبا الى مكة فلم تزل الكعبة امامه حتى دخلها » وتروى كتب تاريخ الادب أن ابن الفارض قد رحل الى مكه لكى يفتح الله عليه كما نصحه شيخه البقال . وفى مكة تسامت روحه الى افاق السناء الالهية وفتح الله عليه ومكث بها خمس عشرة سنه امتلأ فيهـــا قلبه بنور الحب الالهى . وتصاعد به عشقه للذات الالهية حتى اصبحت حاله غير احوال الناس فقد ممرت قلبه البهجة واضائت روحه باشراق التجليات عليه كما قال فى هذه الفترة اجمل شعره والتقى بالسهرودى وكان لهذا اللقاء اثر كبير على فكره وشعره . « اقام ابن القاضى بالاراضى الحجازية حتى جاءه هاتف يدعوه للعودة الى مصر فعاد اليها ليحضر وفاه شيخه البقال عام ٦٢٩ هـ ثم لازم قاعة الخطابة بالازهر يحن الى ايامه بمكة ماكفا على العبادة والتقوى بعيدا عن المغريات والماديات الى أن واناه اجله عام ٦٣٢ هـ . قضى معظم حياته فى ظل عصر الملك الكامل الذى ولى الملك بعد وفاة والده صلاح الدين الايوبى عام ٥٩٨ هـ . وكان ملكا محبا للشعر والشعراء والادب والادباء . وقد جهد هـــذا الملك فى تقريب ابن الفارض اليه وجذبه الى مجلسه ووصـــله بالعطايا والذهب ولكن عمر بن الفارض فر من هذه المغريات وآثر الزهد وصفاء النفس ولذة الفناء فى محبة الله .

هذه سيرة رجل تقترب به من المتصوفة والزهاد اكثر مما تقترب به من الشعراء ولكن قارىء شعره سيرى انه امام شاعر باذخ العظمة فى قوة الاداء الشعرى وعمق الموهبة وبلاغة التعبير وحرارة العاطفة واتساع الخيال مما يجعل الناقد مضطرا الى الحكم عليه بالشـــاعرية المطلقة ولا شك ان زهده وروحانية مشاعره قد امدت قصائده بهـــذا الوهج الذى ينبع من قلب العشاق الصادقين وصنعت من هذه الحرارة سبائك ذهبية تجلت فى صياغته الشعرية الآسرة . ولقد عرفت الاداب كلها هذا النمط الفريد من العشاق الذين ادخروا كل حبهم وعشـــقهم وشوقهم للذات الالهية فجاء شعرهم كما جاء شعر عمر بن الفـــارض غزير العطاء منيرا بالصفاء الشامل تلمع فى دقائقه جواهر الحـــكمة وما اعظم هذه الحكمة التى تأتى من الحب وما اعظم الحب الذى يتجرد من العارض الفانى ليتعلق بالباقى الخالد . يقول الدكتور محمـــد مصطفى

حلمي في كتابه « ابن الفارض سلطان العاشـــقين » كان ابن الفارض الصوفي شـــاعرا نجلت دقه حســـه ورقة نفسه ورهافه شـــعوره في شعره كما تمثلت في ذوقه ووجده فهو قد جمع في شخصـــه بين نبعين صافيين ينهل منهما ويصدر عنهما احدهما نبع الوجد الروحي وتاليهما نبع الطبع الشعري وهو قد اتخذ من الشعر اداه للتعبير عما تعاقب عليه من رياضات ومجاهدات وما عرض له من أذواق ومواجيد وما انتهى اليه من مكاشفات ومشاهدات ولا يحاد يصطنع النثر في التعبـــير عن شيء من هذا كله أو بعضه عندما كان يقص قصه واقعة وقعت له أو يعقب على كلام القي بين يديه أما ذات نفسه وأما حياته الروحية فيمـــا بينـــه وبين ربه ونفسه وأما حبه الالهي الذي ظل طوال حياته مرتلا لانشودته ترتيلا جميلا ومسبحا فيه بجمال محبوبته تسبيحا طويلا فكل اولئك كان الشعر مراته المصورة له وادواته المعبرة عنه » .

والقصيدة التي نحن بصددها « ته دلالا فانت اهل لذاكا » تجســد بصورة مثالية هذه العاطفة الغلابة التي ملكت على الشاعر عمر بن الفارض جوانب نفسه وقلبه وروحه فهي غزلية تفيض رقة وجمالا وفتنة من هذه الغزليات المتتابعة التي ينتظمها ديوان الشاعر . ولقـــد اختصر الشاعر حياته بكل ما اشتملت عليه أو امتدت اليه واشتاقت له في جوهر واحد وعاطفة واحدة رآها جذر الوجود ونوره ومعناه وحقيقته والحكمة البالغة من خلقه هذه العاطفة هي « الحب » وحب عمر بن الفارض تجلى في كل ماكتب من شعر وهو اعظم ما يكون تجليا في هذه القصيدة الرائعة « ته دلالا » والقارىء العادي لهذه القصيدة يرى انها مثال يقترب من الكمال للصدق في العاطفة وللاطار الغزلي في الشعر . فهي تبـــدو قصيدة غزلية من قصـــائد الغزل الانساني . ولكن دراسة حياة الشاعر كما قدمنا هي التي تقدم البرهان على جوهر هذه الغزلية . ان بعض قصائد الشاعر لا تكاد تفترق في تصويرها لمظاهر العشـــق وعلامات الهوى عن قصائد الحب الانساني ولكن سيرة الشاعر هي التي تنفي بشكل قاطع ابتعاد هذه القصائد عن ساحة الشعر الصوفي .

كان الشاعر يحمل روحا ترى الجمال في كل ما خلق اللـــه . فالله هو مصدر الجمال وخالقه ، من هنا ترك الشاعر نفسه تسمو الى افق من المحبة الالهية زالت عنده الفواصل والحدود والاشارات . واستغرق الشاعر في جوهر عشـــقه غير عابىء بدلالات اللغـــة الانســـانية التي يدرك هو قبل غيره عجزها عن تجسيد وتصوير ما هو فيه وما يحس به ويشـــعر .

من هنا كان همه الاول هو التعبير باللغة التي يملكها . كان غارقا من ظفره لرأسه في الحب واراد التعبير عن حبه فجاءت قصائده نابضة

بملامح التعبير الانسانى ولكنها مشحونة فياضة بوجده الالهى . كانت اللغه انسانيه ولكن دلالاتها تجاوزت ذلك الى آفاق اعلى من ذلك وارحب واعمق . كان المتصوفة الاخرون مثل ابن عربى وغيره يصطنعون لغة خاصه ذات رموز كثيفة غامضه فى محاوله لخلق تعبير مطابق لاحوالهم . ولكن ابن الفارض خرج على هذه القاعدة . كان يحيا وجدا خاصا به وحالة بالغة الخصوصية ولكنه كشاعر آثر ان يستخدم لغة عامة هذه اللغة التى فتنت الناس وتركت اثرا واضحا على مشاعرهم . ولاشك أن هذه القصيدة وغيرها من القصائد قد خلقت تيارا دافقا فى عصرها تعبيرا عن الاعجاب والتأثر بهذا المنهج الذى فضل ابن الفارض أن يبث من خلاله عشقه للذات الالهية . ولعل اول ملاحظة على هذه القصيدة تكمن فى هذه البساطة الشديدة التى تتدفق بها أبياتها فى يسر وعذوبة . وهذه البساطة تعود الى ثلاثة مصادر : المصدر الاول هو مصرية الشاعر ونشأته فى بيئة سهلة واضحة . فالمصرية فى التعبير وماتزال هذه الميزة باقية حتى فى الانتاج الادبى المعاصر تعد البساطة والوضوح والسهولة من أبرز سماتها ولا شك ان هذه العناصر تعكس خصائص الشخصية المصرية ذاتها ـ المصدر الثانى هو وضوح العاطفة وتركزها وتمكنها من روح الشاعر حتى اصبح الشاعر بفرحه الغامر بما هو فيه يجيش بالتعبير السهل الواضح فهو غنى بعاطفته غنى بلغته مقتنع بمنهجه الشعرى لا يعانى صراعا من اى نوع . الفرح هو الذى يصنع مثل هذه البساطة والمصدر الثالث هو الغنائية الخالصة التى ترتكز عليها ابيات القصيدة. وهو يعبر عن اعتزازه بمصريته حين يقول :

وطنى مصـــر وفيهـا وطـرى ولعينى مشـتهاها مشـــتهاها
ولنفسى غـــيرها ان ســـكنت يـا خليلى ســـلاها ما سلاها

ولعل ابرز ملاحظة فنية على هذه القصيدة تكمن فى هذا الاستخدام الرفيع والذى ينطوى بلا شك على بعض المبالغة للمحسنات البديعية مثل الجناس والطباق ورد العجز على الصدر وغير ذلك . ولقد نشأ الشاعر فى عصر كان الولع فيه بهذه المحسنات قد بلغ ذروته . وكثير من القصائد قد غرقت الى اذنيها فى زركشة هامشية قد افقدها روحها الحقيقية ولا شك أن الكثير من الشعراء قد استعذبوا هذا الاتجاه الفنى الذى كان سائدا حتى سقطوا اسرى لجاذبيته الخادعة حتى ماتت قصائدهم ودفنت فى حينها ولكن عمر بن الفارض كان على ولعه بالمحسنات يتميز أولا بموهبة شعرية حقيقية تمثلت فى تمكنه من ناصية اللغة التى يستخدمها ويحسن استخدامها وثانيا وهذا هو الاهم أن عمر بن الفارض كانت لديه العاطفة الحارة والوجدان العامر والخيال الوثاب والافق الواسع مما يجعله قادرا على السيطرة على ادواته من ناحية وعلى النظر الى هذه الادوات كوسيط لتجربته الصوفية والشعرية وليست اللغة بديلا عن هذه الحالة بأى شكل من الاشكال . والى جانب هذه الملاحظة الاساسية حول استخدامه الواسع للمحسنات البديعية هناك هذه القدرة الهائلة

على بناء الصورة الشعرية بناء يوحى بالجدة والقوة . والصورة تتولد عنده من هذا الاستخدام الجديد لقوة الالفاظ وبعث الحركة من خلال المقابلة بين المعانى انه يحقق نوعا من اثارة الدهشة باعادة ترتيب دلالات الالفاظ داخل ابياته وهو يهز بهذا الاستخدام الجديد رسوخ المعانى القديمة وثبات الصور البديهية لينهض من جديد تصور قادر على استيعاب المعانى التى يريد توصيلها الى الآخرين . هو قادر على شحن الالفاظ من خلال تغيير دلالاتها بواسطة خلق علاقات جديدة لها بوهج جديد وحركة نفسية وروحية لم تكن لها قبل هذا الاستخدام فها هو يعطى نموذجا جيدا لاسلوبه هذا فى مثل هذه الابيات :

فاتهامى بالحب حسبى وانى ... بين قومى أعد من قتلاكا
لك فى الحى هالك بك حى ... فى سبيل الهوى استلذ الهلاكا
عبد رق ما رق يوما لعتق ... لو تخليت عنه ما خلاكا

ورغم ان هذه الابيات تطفح حتى الحافة بالمحسنات البديعية الا انه لا يسقط عبدا لهذه المحسنات كما صنع غيره من الشعراء وكما يقول الدكتور محمد مصطفى حلمى معلقا على هذه الصناعة اللفظية :

ومهما يكن من امر الصناعة اللفظية التى تبدو واضحة فى بعض المواطن من شعر ابن الفارض فانه لا ينبغى مع ذلك ان ننكر على ابن الفارض انه كان فى اكثر شعره لا سيما الصوفى منه شاعرا مطبوعا بصفة عامة وشاعرا صوفيا ملهما بصفة خاصة . امتاز شعره فى جملته وفى اكثر تفاصيله برقة اللفظ ودقة المعنى وعمق الفكرة وجمال الصورة التى كثيرا ما يتخيلها الشاعر تخيلا نستطيع ان نرى بوضوح ان لغة الشاعر كانت عذبة تستوعب تراث الشعر الغزلى السابق عليه فهو يستخدم كثيرا كلمات الوصل والعذل والفراق والهجر . الذل والخضوع ولكن الموقف العام للقصيدة يؤكد أن الشاعر فى مقام الرجاء والتسليم وهذا الموقف اول العلامات الفارقة بين الحب الانسانى والحب الالهى هو شاعر صوفى من الابيات الاولى فهو يتخلى فى اول ما يتخلى عنه عن ذاته المتمثلة فى ارادته .

ولك الامر فاقض ما انت قاض ... فعلى الجمال قد ولاكا
وتلافى ان كان فيه ائتلافى ... بك عجل به جعلت فداكا
وبما شئت فى هواك اختبرنى ... فاختيارى ما كان فيه رضاكا

هذا التسليم المشفوع بالرجاء والمبطن بالتضحية بالارادة تفصح عنه القصيدة فى ابياتها الاولى ولا شك ان هذا الموقف الواضح البسيط هو موقف عاشق من نوع خاص فمهما كانت عاطفة العاشق التقليدى ولا يوجد عاشق تقليدى — والعاشق عشقا انسانيا فان ارادته وذاته تظل كامنة تحت خضوعه وتوسله والشاعر فى خضوعه يتداعى ليكون حيثما يريد المحبوب وطوع مشيئته فهو يلوذ بالرجاء والتمنى فاذا لم يسفر

الرجاء والتمنى الاعن الهلاك فهو يطمع فى بقاء عينه لعلها تشاهد من شاهد الحبيب .

ابق لى مقـــلة لعـــلى يـــومـا قبـــل موتى ارى بها من رآكـــا

وكما يكثر العاشق الذى يعشق عشقا انسانيا من الحـــديث عن متاعبه الخاصة من المرجفين والوشاة فعمر بن الفارض يفعل كذلك لانه يريد أن ينقل الينا بلغته الشعرية تجربته الصوفية : الشاعر فيه يغالب الصوفى فيغلبه احيانا واحيانا يستولى الصوفى على الشاعر فلا يـــدع له فرصة للفكاك .

شنع المرجفون عنـــك بهجـــرى واشـــاعوا انى ســـلوت هواكا
مـــا باحشـــائهم عشـــقت فاسلو عنـــك يوما دع يهجـــروا حاشـاكا

ولا يقصر الشاعر فى كثير من ابيات القصيدة فى التعبير عن المرتبة العالية والمنزلة الرفيعة لطبيعة عشقه وهذه ايضا من العلامات الفارقة بين حبه للذات الالهية وحب غيره لغيره من الفانين .

كل من فى حمـــاك يهـــواك لكن انـــا وحدى بكل من فى حمـــاكا

وهو بالطبع لا يقصد بهذا البيت نوعا من تفضيل نفســه على الجميع ولـــكنه يشـــير الى أن حبـــه فـــوق حب الجميـــع وعاطفته أقوى من عواطف الجميع ويجد هذا البيت تاكيدا شاملا له فى البيت الذى يقـــول فيه الشـــاعر :

يحشر العاشـــقون تحت لـــوائى وجميـــع الملاح تحـــت لـــواكا

هو سيد العشاق ومحبوبه ســـيد المعشوقين . ان الشـاعر الذى يضحى بذاته وحريته وارادته يجد تعبه هينا عليه وسهاده ثمنا عادلا لظهور طيف الحبيب .

ومتى لاح لى اغتفـــرت ســـهادى ولعينى قلـــت هـــذا بـــذاكا

هذه القصيدة نشيد من اناشيد الحب الالهى نزلت الى نهر الجمال فهى لا تطيق أن تفارق شاطئيه . تؤكد أن الحب الحقيقى هو السعادة الحقيقية وهو الحكمة والكون كله . فاض قلب الشاعر بأبياته فغمـــر ارواحنا بهذا الصفاء الذى كان يعمر قلبه . ولن نستطيع أن نصل الى اغوار الدلالات الروحية التى ارادها الشاعر عمر بن الفـــارض الا اذا تسلحنا بهذا الكنز الغامر من الاشراق لذى كان يصدر عنه فيمثل حاله نصل الى فهمه وليس لنـــا الا السباحة القريبة من شـــواطىء نهـــره الغزير والا الشوق الى المعرفة الواسعة التى لا نملك فك رموزها وحسبنا قطرة من بحره .

غزليـــات ابـى تمـــام

الغزليـــات

— ١ —

بالابـــا ثوب الملاحـة ابـــله ... فلأنت أولى لابســبه بلبســـه
لـم يعطـك الله الذى اعطـاكه ... حتى استخف ببـدره وبشمسه
رشـــا اذا ما كان يطلق نفسه ... فى فتكه امر الحيـاء بحبســـه
وانا الذى اعطيتـه محض الهوى ... وصميمه واخذت عذرة انســـه
فلئن جنيـت ثمـاره وغرسـته ... ما كنت اول من جنى من غرســه
مولاك يا مولاى صـاحب لوعـة ... فى يومه وصـبابة فى امســـه
دنف يجود بنفســـه حتى لقـــد ... أمس ضعيفا أن يجود بنفســـه

— ٢ —

بنفس حبيب ســـوف يثكلنى نفسى ... ويجعل جسمى تحفة اللحد والرمس
جحدت الهوى ان كنت مذ جعل الهوى ... محاسنه شمسى نظرت الى الشمس
لقد ضاقت الدنيـا على بأسرها ... بهجرانه حتـى كأنـى فى حبس
اسكن قلبـــا هائمـــا فيه مأتم ... من الشوق الا ان عينى فى عرس
وانـى لاخشى ان تراقت أمـوره ... به أن يثور الجن فيه على الانس

— ٣ —

معتـــدل لـم يعتـدل عد لـه ... فى عاشـــق طـــال به خبلـه
أطرافـه احســن ام ظرفـــه ... أو وجهـــه احسن ام عقـــله
انظر فمـــا عاينت فى غـــيره ... من حسن فهـــو له كـــله
لو قيـل للحسن تمنـى المنـــى ... اذن تمنـــى انـــه مثـــله
اى خصـــال حازهـا ســـيدى ... لو لم يكدر صـــفوها مطـــله

اســـتزارته فكرتى فى المنـــام ... فأتانـى فى خفيـــة واكتتـــام
الليـالى احفى بقلبى اذا مـــا ... جرحتـــه النوى من الايـــام
يـا لهـــا لذة تنزهـــت الارو ... اح فيهـــا سرا من الأجســـام
مجلس لـم يكن لنا فيه عيـــب ... غير انا فى دعـــوة الاحـــلام

— ٥ —

الهوى ظـــالم وانت ظـــلوم كيف يقسوى عليكمـــا المظلوم
للهوى جـــراة ومنك صـــدود ليس لى منكمـــا محب رحيـــم
قد برانى الهـــوى ودله عقـــلى حـــل بى منكما البلاء العظيـــم
انما يعرف الســـهاد طول الليل من حبـــل وصـــله مصروم

— ٦ —

رقـــادك ياطرفى عليك حـــرام فخـــل دموعـــا فيضهن ســـجام
ففي الدمع اطفاء لنار صـــبابة لها بين اثنـــاء الضـــلوع ضرام
ويا كبدى الحرى التى قد تصدعت من الوجد ذوبى ما عليـــك مـــلام
قضيت ذماما للهوى كان واجبـــا على ولى ايضـــا عليه ذ مـــام
وياوجه من ذلت وجوه اعـــزة له وســـطا عـــزا فليس يرام
أجر مستجيرا فىالهوى بك باسطا اليـــك يديه والعيون نيـــام

— ٧ —

الحسن جزء من وجهـــك الحسن يا قمـــرا موفيـــا على غصـــن
ان كنت فى الحسن واحدا فانـــا يا واحد الحسن واحد الحـــزن
كـــل ســـقام تراه فى أحـــد فذاك فرع والاصـــل فى بدنـــى
كوامن الحـــب قبـــل كونك فى افئدة العاشـــقين لم تـــكن

— ٨ —

لاتصـــدى فالصـــد امر عظيم وارحمـــى فالمحب بر رحيـــم
أمن العدل ان قلبـــك ســـال والهـــوى ثابت بقلبى مقيـــم
ثم الحقت بى الاســـاءة والظلم وغـــيرى هو المسىء الظـــلوم
ما اجترمنـــا اليك جرمـــا ولكن حســـب هذا الزمـــان ليس يدوم

شاعر هذه الغزليات هو ابو تمام حبيب بن اوس الطائى واحد من ابرز ثلاثة شعراء عرفهم العصر العباسى كما يقول صاحب الوسيط فى الادب العربى والاخران هما البحترى والمتنبى .. وابو تمام صاحب مذهب شعرى جدد به ديباجة القصيدة العباسية واصبح علما على منهج تفرد به . ولد عام ١٩٠ هـ بقرية جاسم قرب دمشق ورحل الى مصر صغيرا وكان يعمل سقاء بجامع عمرو ابن العاص . وتاثر بعلماء المسجد وادبائه فتعلم العربية وحفظ مالا يحصى من شعر العرب ونبغ فى قوله ثم خرج الى بغداد حيث دبج المدائح فى المعتصم ووجد عنده حظوة عظيمة واكثر من مدائح الكتاب والوزراء والعمال والولاة وتقرب الى كبار المسئولين حتى ولاه عبد الحسن بن وهب بريد الموصل فاقام بها الى ان مات عام ٢٣١ هـ

يقول عنه صاحب الاغانى « شاعر مطبوع لطيف الفطنة دقيق المعانى غواص على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره وله مذهب فى المطابق هو كالسابق اليه جميع الشعراء وان كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه فان له فضل الاكثار فيه والسلوك فى جميع طرقه والتسليم من شعره النادر شىء لا يتعلق به احد . وله اشياء متوسطة ورديئة رذلة جدا وفى عصرنا من يتعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف واقوام يتعمدون الردىء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ويستعملون القحة والمكابرة فى ذلك . » ولقد افرط ابو تمام فى المدائح حتى حصد بها مغانم غيره من الشعراء واخملهم حتى انهم يقولون بأنه لم يترك شيئا من الجوائز لشاعر غيره لجودة شعره فلما مات قسمت الجوائز التى كان يأخذها على بلاغى الشعراء . ولعل فنه الجديد الذى يقوم على الخيال المركب وتوليد الصور الشعرية الغريبة ونبذ المألوف من المعانى والصياغة القوية غير المألوفة لشعراء ذلك العصر هى التى ادهشت الامراء وحببتهم فى شعره وقد كان ابو تمام لمعرفته بمستوى شعره وطمعه ايضا انتقاما لايام الفقر الاولى فى حياته حيث كان ابواه فقيرين يترفع عن الجوائز التافهة ولا يرضيه الا المال الغزير ويروى صاحب الاغانى لما شخص ابو تمام الى عبد الله بن طاهر وهو بخراسان اقبل الشتاء وهو هناك فاستثقل البلد وكان عبد الله وجد عليه وابطأ بجائزته لانه نثر عليه الف دينار فلم يمسسها بيده ترفعا عنها فاغضبه وقال يحتقر فعلى ويترفع على . فكان يبعث اليه بعض الشىء كالقوت فقال ابو تمام :

لم يبق للصيف لارسم ولاطلل ... ولا قشيب فيستكسى ولا سمل
عدل من الدمع أن يبكى المصيف كما ... يبكى الشباب ويبكى اللهو والغزل
يمنى الزمان انقضى معروفها وغدت ... يسراه وهى لنا من بعدها بدل

فبلغت الابيات ابا العميثل شاعر عبد الله بن طاهر فاتى ابا تمام واعتذر اليه لعبد الله بن طاهر . وعاتبه على ما عتب عليه من اجله . وتضمن له ما يحبه ثم دخل الى عبد الله فقال : ايها الامير اتتهاون بمثل ابى تمام وتجفوه ؟ فوالله لو لم يكن له ما له من النباهة فى قدر — والاحسان فى شعر — والشائع من ذكره لكان الخوف من شره والتوقى من ذمه يوجب على مثلك رعايته ومراقبته فكيف وله بنزوعه اليك من الوطن وفراقه السكن وقد قصدك عاقدا بك أمله معملا اليك ركابه متعبا فيك فكره وجسمه وفى ذلك ما يلزمك قضاء حقه حتى ينصرف راضيا ولو لم يات بفائدة ولا سمع فيك منه ما سمع الا قوله .

تقول فى قومس صحبى وقد اخذت ... منا السرى وخطا المهرية القود
امطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا ... فقلت كلا ولكن مطلع الجود

To: www.al-mostafa.com

فقال له عبد الله . لقد نبهت فأحسنت وشفعت فلطفت وعاتبت فأوجعت ولك ولابى تمام العتبى ادعه يا غلام فدعاه فنادمه يوما وأمر له بألفى دينار وخلع عليه خلعة تامة من ثيابه وأمر بحراسته الى آخر عمله . ولم يكن المدح هو الفن الاوحد الذى يرز فيه أبو تمام بل ان مراثيه وفى مقدمتها مرثيته الشهيرة فى محمد بن حميد الطوسى تؤكد أنه كان شاعرا يجيد الرثاء اجادة تضعه فى قمة شعراء هذا الغرض القديم وكان تصويره للطبيعة جديدا فى ادائه فقد أبدع فى هذا الجانب الهام والذى يكاد الشعر العربى يبدو فيه فقيرا بجانب الاغراض الاخرى ولا شك أن شعره الغزلى قد ارتوى من خبرته الفنية الطويلة فجاء هو الاخر ناضجا رفيقا بالغ العذوبة رصينا جزل العبارة نضير الصورة . ولقد تأثر ابو تمام فى شعره وحياته بثقافة عصره هذه الثقافة التى شاعت فيها روح الترجمات من الاداب الاجنبية خاصة الاداب اليونانية والهندية وظهرت فى شعره هذه الافكار الفلسفية والاقيسة المنطقية التى تؤكد أن عقله وروحه قد انغمسا بقوة فى هذه الثقافات الجديدةالنشيطة والتى ذاعت وأثرت لا فى علماء الكلام والفقهاء وحدهم وانما تمثلها الشعراء ايضا يقول الدكتور « شوقى ضيف » وشعر أبى تمام زاخر بما يدل على أنه انقض على معارف عصره انقضاضا . تمثلها تمثلا دقيقا وخاصة التاريخ وعلم الكلام وما يتصل به من الفلسفة والمنطق . اما التاريخ فيتضح فى كثير من جوانب مديحه . وخاصة حين يعرض لقبيلة الممدوح ووقائعها ومجادها فى الجاهلية والاسلام على نحو ما يلقانا فى قصائده لخالد ابن يزيد بن مزيد الشيبانى ومالك بن طوق التغلبى وكذلك حين يقرن وقائع بعض الابطال ودويها فى الخافقين الى وقائع جاهلية واسلامية مشهورة . ثم يقول الدكتور شوقى ضيف . وجعلته صلته بالمنطق والفلسفة يكثر من استخدام الادلة المنطقية وهى عنده تستمد من نفس احساسه العميق بتشابك حقائق الكون فاذا بعضها يرى من خلال بعض بل اذا بعضها يتخذ دليلا وحجة على بعض . ويتسع التأثر بالفلسفة عنده حتى ليشيع الغموض فى كثير من أبياته وهو غموض بهيج كغموض الطبيعة فى الصباح والغروب اذ يجلله دائما شفق يأخذ بالالباب ونعجب اذ نجد القدماء يحملون عليه من أجله كما حملوا على اكثاره من اللفظ الغريب ومن التصاوير والوان البديع حتى قالوا انه أفسد الشعر وهو لم يفسده بل هيأ له ازدهارا رائعا تسنده فيه ثقافة واسعة بالفلسفة والمنطق وبالشعر العربى قديمه وحديثه كما تسنده قوة ملكاته التى جعلته يعد بحق حامل لواء الشعر العربى فى عصره . بل جعلته صاحب مذهب مستقل بخصائصه العقلية والزخرفية .

يستقيم لنا من قراءة شعر أبى تمام فى مراثيه ومدائحه ووصفه للطبيعة منهج شعرى متميز تتضح خصائصه فى غرابة صوره هذه الغرابة الناشئة من تجاوز العلاقات الفنية داخل هذه الصور لحدود البلاغة القديمة وغموض معانيه لجموح خياله وشطحه الفلسفى وكثرة الاقيسة العقلية والمنطقية فى شعره وانتقاء الغريب من الالفاظ استجابة

للمبالغة الخيالية والنفسية التى كانت من أهم سماته . فهل ينطبق هنا المنهج الشعرى عند ابى تمام على غزلياته التى نتعرض لها الآن ؟ اذا تاملنا الغزليـــة الاولى برزت لنا على الفور الصورة العقلية المنطقيـــة وراء صورها . فها هو يأمر حبيبه باستهلاك ثوب الحسن ومعنى هـــذا الاستهلاك هو التمتع به فهو ينصحه بالتمتع بهذا الجمال الذى هو أولى به وها هو المنطق يبرز فى هذه المقارنة بين تفوق جماله الساحق وبين بهاء الشمس والقمر فالبيت كله يعكس قياسا منطقيا ونظرة عقلية وها هى المطابقة فى البيت الثالث بين الاطلاق والحبس وها هو يرى أن ماجناه من غرسه كان منطقيا ثم تخف قبضة الصورة العقلية ليظهر التقسيم البلاغى ورد العجز على الصدر حين يقول :

دنف يجود بنفســـــه حتى لقد امسى ضـــــعيفا أن يجود بنفســـــــه

ان اللغة فى هذه الغزلية واضحة لا غموض فيها وربما كان الدافع الى ذلك هو الحاحه على توضيح موقفه من هذا الحبيب الذى يضن عليه عليه بجماله وهو يحاول أن يقنعه بأنه انما يعانى من أجله فى يومـــه وينصحه بالتمتع معه بهذا الحسن الباهر الذى يجاوز بهاء الشمس والقمر . ولا نملك الا الاعجاب بهذه الصور البارعة التى تتحرك فى اطار مألوف من قيود البلاغة القديمة والمحسنات البديعة المعروفة ولكن تظل هـــذه الصور وهذه الغزلية اكثر اثارة لموقف العقل من موقف الحس فاذا انتقلنا الى الغزليـــة الثانية . وجدنا الشاعر مازال يشكو من هجران حبيبه هذا الهجران الذى تركه فى الغزلية الاولى على حدود المرض ولكنه فى الغزلية الثانية يقترب به من الموت نفسه . بل أن هذا الحبيب القاسى ســـوف يقدم حبيبه تحفة للحد والقبر . وها هو الشاعر يلجأ الى براعته وذكائه فى استمالة قلب حبيبه هذا التودد الذى يصعد به الى المبالغة . وهو مرة أخرى يضع حبيبه فوق مرتبـــة الشمس المضيئة فهـــو يعلن جحوده للهوى ان كان منذ اتخـــذ محاسن الهوى شمسا له قد نظر الى هذه الشمس الحقيقية . وأى تعبير جميل غير مباشر يتضمنه هذا البيت انه يبدو كما لو كان بيتا تقريريا مباشرا ولكنه فى الواقع بيت شديد التركيب غنى بالمعانى الكثيرة فهو فى بدايته يتهم بنفســـــه بجحود الهوى . وهذا التقديم للجحود يعنى انه يراه فادحا وجليلا وغير محتمل وهو يمزج بين الحب والمحبوب حين يتحدث عن المحاسن فهو قد اتخذ هذه المحـــاسن الرائعـــة شمسا له . والشمس هنـــا أعظم وأجل قدرا من القمر . فهو يرى فيها قوة الحياة ذاتها . النور والدفء وقوة النماء ويدفع الهجران الشـــاعر الى اعـــلان الضيق بالدنيـــا كأنه فى ســـجن بسبب الهجر الا انه يقفز الى بيت جميل تلعب فيه المقابلة دورا دراميا بديعا . فها هى كلمة ـــ اسكن ـــ تحمل الكثير من الدلالات الموحية بالهياج والجزع والقلق واللوعة كل هذا فى كلمة واحدة وكأنه يمسك بجواد جامح يريد أن يطير ويركض ثم تأتى المقابلة بين القلب الجاثم فى مأتم الاحزان والعين المنتهجة بالعرس الذى خلقه جمالها . فقلبه حزين لعدم طمأنينته وخوفه وفزعه

وعينه سعيدة كأنها فى عرس . المقابلة بين المأتم والعرس ليست وحدها التى خلقت جمال الصورة وانما الفصل اللا منطقى بين القلب وبين مدركات الحواس . هذا الايهام الشعرى الذى يهدف الى بيان حالين متناقضين بل ويهدف الى تجاوزهما والى تصوير قوة الهجر وجمال المحبوب لتكون اللوعة تامة التصوير . ثم يأتى الى بيت تفسده المبالغة حتى تقتله حين يرى أن الجن ستثور على الانس بسببه . هى مبالغة فاترة لانها تأتى من خارج تجربة الشاعر وعناصرها الذاتية . وفى الغزلية الثالثة نجد الشاعر وقد فرغ من بث لواعجه الى تصوير أحوال المحبوب وهو تصوير تلعب فيه المحسنات البديعة والتلاعب بالالفاظ دورا اساسيا — فها هو المحبوب . معتدل لم يعتدل عدله ورغم كثرة الجناس فالبيت لا يفقد جماله فالمعتدل الاول هو اعتدال القوام . ولم يعتدل عدله تعبير عن ظلمه فى حبه وفى حكمه على هذا العاشق الذى طال به الجنون ثم يتجه الشاعر الى التقسيم أطرفه أحسن ام ظرفه . أو وجهه أحسن ام عقله . يريده تاما كاملا فى الحسن والظرف والعقل . وما يكون الكمال البشرى اذا خرج عن جمال الهيئة والطبع وصحة العقل . انه فى هذا البيت الرائعة يعطى انطباعا بمعنى تام مؤكد — واذا كانت المبالغة قاتلة لبعض الابيات مثل ثورة الجن على الانس فانها هنا فى البيت الذى يقول فيه :

لو قيل للحسن تمن المنى اذن تمنى انه مثله

هى هنا مبالغة مقبولة تشع فتنة ورقة . ان أبا تمام يستخدم البلاغة التقليدية ببراعة المكتشف الاول لقد كان واحدا من مؤسسى علم البديع بحيله الشعرية ولكن الشعراء الذى أفسدوا هذه المحسنات كانوا لا يملكون عبقرية هذا الشاعر الفذ . ثم ننتقل الى الغزلية الرابعة فاذا تعبيره عن الحلم يأخذ شكلا متوسطا ليس فيه براعة التجربة الحسية ذلك لانها تأمل عقلى خالص . اما الغزلية الخامسة فهى تمضى فى نفس منهج أبى تمام الشعرى . فها هو يواجهنا من البداية بهذه الحجة العقلية القوية فالهوى ظالم بطبيعته والحبيبة اشد ظلما من الهوى . ولذا يتساءل الشاعر تساؤلا انكاريا يائسا باطلا كيف ينجو المظلوم من بطش ظالمين . الهوى يدفعه الى الاقدام والالحاح وهى هاجرة تصده فكأنه مدفوع بقوة قاهرة هى الهوى لا يملك لنفسه فكاكا منها وهى ممتنعة لا تنصفه فيخف حزنه وألمه ثم يشكو سقمه وبلاءه وسهر الليالى والسهاد أما الغزلية السادسة فهى أشد هذه الغزليات لوعة وحزنا وها هو فيها لا يتجلد . بل يدعو عينه الى ترك النوم وانهمار الدموع فقد يطفىء الدمع نار الهوى المتأجج فها هى نار الحب مشتعلة فى جوانح نفسه وبين ثنايا الضلوع وها هو يقول لكبده التى تصدعت ذوبى ، ما عليك ملام هو يدرك ما فى كبده من حرارة الحب وعنائه فلا لوم على هذه الكبد بعد أن تصدعت من أن تذوب فالعبء ثقيل والهم لا يطاق . وكأن الشاعر

قد انتبى الى يأس لا شفاء منه بعد أن قضى ما عليه من واجبات وأعباء تجاه هذا الهوى وانتظر الجواب فلم يجد الاخرين يرعون ذمامه كما رعاه لهم . هل هى غزلية أم شكوى أليمة من الهجر . أن هذه المقطوعة تبتعد عن المحسنات البديعية والصور العقلية لان قوة الاحساس والانفعال بها قد صاغتها بعيدا عن ترف العقل وأقيسته وتأملاته فدموعه المنهمرة لم تترك له فرصة لاختيار المنطق . ويعود فى الغزلية السابعة الى لعبته المفضلة الى صورة العقليسة ومقابلاته . وهذه الغزلية تعكس رؤية فلسفية واضحة . هو هنا يقيم مقارنة متصلة بين الحسن الكلى والحسن الجزئى بين وجه الحبيب الذى يمثل الكلى وبين معنى الحسن الذى يمثل الجزئى فها هو الجمال بعض هذا الوجه الجميل وها هو الشاعر يقارع واحد الحسن بواحد الحزن يعنى نفسه ويقدم للحبيب ستامه برهانا على حبه . هذا الحب الذى لم يكن موجودا قبل حصول هذا المحبوب فى أفئدة العاشقين فكأنه ينفى أن ثمة حبا سابقا على حب هذا المحبوب الزائد الحسن . أما الغزلية الاخيرة فهى نصيحة رقيقة من عاشق يرى الظلم قد حاق به دون ذنب جناه . يتوسل الشاعر بالمنطق والحجج والعقلية مرة اخرى فى محاولة لاقناع المحبوب بالعدول من صده ويدعو الى الرحمة به فليس من العدل أن يكون قلب المحبوب خاليا ساليا وقلبه ثابتا على المودة ولماذا وهو لم يذنب ولم يسىء أى جرم أتى به الشاعر حتى يلقى كل هذه الاساءة والصدود وكأنه فى الختام يحذر المحبوب من ان الحب فى هذا الزمان عابر لا دوام له فهو تحذير يتضمن دعوة للاستمتاع بمباهج هذا الحب ونعيمه . ان أبا تمام يظل فى كل شعره محتفظا بخصائصه التى تميز بها وصار بها اماما بين شعراء عصره واعطانا صوتا جديدا فريدا فى الشعر العربى كله .

لاميـــة العجـم

للشـــاعر الطغرائـــي

القصيدة

اصالة الرأى صانتنى عن الخطل ... وحلية الفضل زانتنى لدى العطل
مجدى اخيرا ومجدى اولا شرع ... والشمس رأد الضحى كالشمس فى الطفل
فيـم الاقامة بالزوراء لا سكنى ... بها ولا ناقتى فيها ولا جمـلى
ناء عن الاهـل صفر الكف منفرد ... كالسيف عرى متناه من الخلـل
فلا صـديق اليه مشتكى حزنى ... ولا انيس اليـه منتهى جذلـى
طـال اغترابى حتى حن راحلتى ... ورحلهـا وترى العسـالة الذبل
وضج من لغب نضوى وعج لما ... يلقى ركابى ولج الركب فى عذلـى
اريد بسطة كف استعين بهـا ... على قضاء حقوق للعلى قبـلى
والدهـر يعكس آمالى ويقنعنـى ... من الغنيمة بعد الكد بالقفـل
وذى شطاط كصدر الرمح معتقل ... بمثله غير هياب ولا وكـل
حلو الشكاهة مر الجـد قد مزجت ... بقسوة اليأس فيه رقة بالمقـل
طردت سرح الكرى ورد مقلتـه ... والليل اغرى سوام الليل بالمقل
والركب ميل على الاكوار من طرب ... صاح وآخر من خمر الكرى ثمـل
نقلت اسعـوك للجـلى لتنصرنى ... وانت تخذلنى فى الحادث الجلـل
تنام عينى وعين النجم ساهرة ... وتستحيل وصبغ الليل لم يحـل
تعبـين على غى هممـت به ... والغى يزجر احيانا عن الفشـل
انى اريد طروق الجى من اضـم ... وقد رماه رماة الحى من ثقـل
يحمون بالبيض والسمر اللدان بهم ... سود الغدائر حمر الحلى والحلل
فسر بنـا فى ذمام الليـل مهتديا ... بنفحة الطيب يهدينا الى ـــ الحلل
فالحب حيث العدى والاسدرابضة ... نصالها بميـاه الغنج والكحـل
قد زاد طيب احاديث الكرام بهـا ... ما بالكرائم من جبن ومن بخـل
تبيت نار الهوى منهن فى كبـد ... حرى ونار القرى منهم على القلل
يقتلن انضاء حب لاحراك بهـا ... وينحرون كرام الخيل والابـل
يشفى لديغ الغوانى فى بيوتهـم ... بنهلة من لذيذ الخمر والعسـل
لعل المـلامة بالجزع ثانيـة ... يدب فيها نسيم البرء فى علـل
لا اكره الطعنة النجلاء قد شفعت ... برشقة من نبال الاعين النجـل
ولا اهاب صفاح البيض تسعدنى ... باللمح من صفحات البيض فى الكلل
ولا اخـل بغزلان اغازلهـا ... ولو دهتنى اسود الغيل بالغيـل
حب السلامة يثنى هم صـاحبه ... عن المعالى ويغرى المرء بالكسل
فان جنحت اليه فاتخذ نفقـا ... فى الارض او سلما فى الجو فاعتزل
ودع غمار العلى للمقدمين عـلى ... ركوبها واقتنع منهن بالبلـل

يرضى الذليل بخفض العيش يخفضه ... والعز عند رسيم الانيق الذلل
فادرأ بها فى نحور البيد جافلة ... معارضات مثانى اللجم بالجدل
ان العلى حدثتنى وهى صادقة ... فى ما تحدث ان العز فى النقل
لو ان فى شرف المأوى بلوغ منى ... لم تبرج الشمس يوما داره الحمل
اهبت بالحظ لو ناديت مستمعا ... والحظ عنى بالجهال فى شغل
لعله ان بدا فضلى ونقصهم ... لعينه نام عنهم أو تنبه لسى
امال النفس بالامال ارقبها ... ما اضيق العيش لولا فسحة الامل
لم ارتض العيش والايام مقبلة ... فكيف ارضى وقد ولت على عجل
غالى بنفس عرفانى بقيمتها ... صنتها عن رخيص القدر مبتذل
وعادة النصل ان يزهى بجوهره ... وليس يعمل الا فى يدى بطل
ما كانت اوثر ان يمتد بى زمنى ... حتى ارى دولة الاوغاد والسفل
تقدمتنى اناس كان شوطهم ... وراء خطوى اذ امشى على مهل
هذا جزاء امرىء اقرانه درجوا ... من قبله فتمنى فسحة الاجل
وان علانى من دونى فلا عجب ... لى أسوة بانحطاط الشمس عن زحل
فاصبر عليها غير محتال ولا ضجر ... فى حادث الدهر مايغنى عن الحيل
اعدى عدوك من وثقت به ... فجاذر الناس واصحبهم على دخل
وانما رجل الدنيا وواحدها ... من لا يعول فى الدنيا على رجل
وحسن ظنك بالايام معجزة ... فظن شرا وكن منها على وجل
فاض الوفاء وفاض الغدر وانفرجت ... مسافة الخلف بين القول والعمل
وشان صدقك عند الناس كذبهم ... وهل يطابق معوج بمعتدل
ان كان ينجع شىء فى ثباتهم ... على العهود فسبق السيف للعذل
يا وارد اسؤر عيش كله كدر ... انفقت عمرك فى ايامك الاول
فيم اعتراضك لج البحر تركبه ... وانت تكفيك منه مصة الوشل
ملك القناعة لا يخشى عليه ولا ... يحتاج فيه الى الانصار والخول
تزجو البقاء بدار لاثبات لها ... فهل سمعت بظل غير منتقل
ويا خبيرا على الاسرار مطلعا ... اصمت فنى الصمت منجاة من الزلل
قد رشحوك لامر ان فطنت له ... فاربأ بنفسك ان ترعى مع الهمل.

شاعر هذه القصيدة هو ابو اسماعيل مؤيد الدين الحسين بن على ابن عبد الصمد الذى اشتهر بلقب « الطغرائى » هو صاحب الطغراء وهى الطرة التى تكتب فى اعلى الرسائل فوق البسملة بالقلم الغليظ ومضمونها نعت الملك الذى صدر عنه الكتاب . وكان للطغراء ديوان خاص بها فى دولة السلاجقة التى حكمت بغداد وبلاد العجم فى الفترة من عام ٤٤٧هـ حتى عام ٥٢٥هـ ويضم هذا الديوان : الرسائل والانشاء .

ولد الشاعر عام ٤٥٣هـ فى جى من اصبهان فى اسرة من ولد ابى الاسود الدولى .

ولم يدخر جهدا فى تثقيف نفسه ثقافة واسعة جعلته عارفا باحداث عصره متقنا لادوات فنه . الكتابة والشعر . كان طموحا الى المناصب

العالية يرى نفسه اهلا لاعلى المناصب فى دولة السلاجقة فانخرط فى سلك الكتاب يسعى الى اقامة اوثق العلاقات مع الرؤساء والوزراء وبعد ان تقلب بين السراء والضراء اصبح نائبا لديوان الطغراء ولم يلبث ان اصبح رئيسا لهذا الديوان نفسه . ولكنه كان يرى فى هذا الديوان مجرد مرحلة على الطريق الى الوزارة وقد بدأ يعمل لهذا الهدف مثابرا لا يكل وقد لاحظ المحيطون به من كبار موظفى دولة السلاجقة هذا الطموح الغلاب الذى يشتعل فى صدره كما كانوا خبر من يعرف مواهب الطغرائى فى الشعر والنثر مما يجعل هدفه قريبا منه . وكان ان حاصرته الكراهية والحسد والكيد وها هى الدسائس تسد عليه طرقه متخذة من الكذب والافتراء وسيلة للقضاء على هذا الشاعر الطموح . وقد انتصرت الاحقاد فعزل عن ديوانه فى الوقت الذى كان يخطط فيه للوصول الى الوزارة ولا شك ان الاحباط قد اصاب نفسه المرهفة بجرح غائر فى سويداء قلبه مما دفعه الى الرحيل والهجرة الى اصفهان ولعله أمضى فترة معتزلا ومنصرفا الى الكيمياء والتأليف كما يقول محققا ديوانه الدكتور على جواد الطاهر والدكتور يحيى الجبورى . ولكن الشاعر يعود من جديد الى ديوان الطغراء فى اصفهان عام ٥٠٩ هـ ولكن لعنة حساده تطارده فيكيد له أحد هؤلاء الحاقدين فيتهم بالسحر ويعزى الى سحره مرض السلطان محمد ولم تلبث الاوساط القريبة من بيت الحكم أن صدقت الشائعات عن سحره فعزل مرة اخرى ولكنه عاد مرة ثالثة الى الديوان بعد وفاة السلطان محمد وتولى ابنه محمود السلطنة من بعده ولكن اللعنة تطارده حتى تضطره مرة ثالثة الى الاعتزال وملازمة بيته . ولم يهدأ باله لهذه العزلة رغم انه كان فى التاسعة والخمسين من عمره ولكن شهوة الطموح والوصول الى كرسى الوزارة كانت ما تزال متأججة فى صدره . فرحل الى الموصل حيث الملك مسعود بن السلطان محمد الذى استوزره . وكان صغيرا فى الحادية عشرة من عمره يدير له امر مملكته قائد جيشه . ولم يلبث هذا القائد ان فكر فى انتزاع السلطنة من السلطان محمود وضمها الى سلطنة مسعود حتى تكون تحت يده وتبدأ المواجهة بين جيوش السلطان محمود واخيه السلطان مسعود ويكتب النصر للأول ويأسر الشاعر بعد هزيمة حامية ويواجه اعداءه مرة اخرى . اعداءه الذى حاصروه واتعدوه وها هم الان يمسكون به كالطائر الجريح لا يملك من أمر نفسه شيئا ويتهم الشاعر بالالحاد وهى تهمة كانت مجرد ذريعة للقضاء عليه وقتل الشاعر ظلما فى ربيع الاول من عام ٥١٥ هـ . ولم يمكث الشاعر فى المنصب الخطير الذى اقصى حياته طلبا له اكثر من عام وشهر واحد وهكذا فتك به طموحه الغلاب فى زمن كانت الدسائس والمؤامرات هى نظام العصر وطبيعته . ولا شك أن مأساوية العصر الذى عاش فيه الشاعر هى التى طبعت فى نفسه هذه الصورة القاتمة للناس من حوله وجعلته سيء الظن بهم . فالحلقة المفرغة من الولاية والعزل والاقامة والرحيل والوصول الى الهدف والبعد عنه قد القت به فى جحيم حقيقى من الشك والريبة والخوف وكان الشعر هو حليفه الدائم الذى صب فى قواريره الزاهية عصارة تجاربه القاسية ومرارة ايامه التى كانت تزداد قتامة ويبدو ان تجدد

الامل فى حيـــاته هو الذى جعله يحرص على المثـــابرة وتجـــاوز اليأس فى نفسه . فقد كانت حظوظ حياته المتقلبة مراوغة فلا هى تدعه فى النجاح الذى شقى فى الحصول عليه ولا تلقى به فى هو فشل نهائى يدفع به الى يأس مريح .

والقصيدة التى نحن بصددها لامية العجم واحدة من عيون الشعر العربى فى كل عصوره وبها اشتهر الشاعر فى مختارات الشعر العربى ولدى الشراح والباحثين والنقاد والبلاغيين . ولعل هذه القصـــيدة أن تكون اكمل نموذج لحياته وشعره ففيها كل عناصر المأساة التى حكمتحياة الشاعر رغم انه تمالها فى بغداد عقب عزله الاول عام ٥٠٥ هـ ولكنها توشك أن تكون نبوءة كاملة بمستقبل ايامه كما كانت صورة تقترب من الـكمال لماضـــيه الذى قضـــاه فى صـــحبة هواجســـه ومخاوفه وشكوكه وحزنه ويأسه وأمله .

والقصيدة من الناحية الفنية توحى باتجاه الشعر العربى فى هذا القرن السادس الهجرى الى الدخول فى شحوب الافول على ابواب عصور الانحطاط الطويلة التى سادت الادب العربى بعد سقوط الخلافة الاسلامية فى أيدى الاجناس الاعجمية . هذه العصـــور التى تتميـــز بالاحتفـــال الشديد بالمحســـنات البديعية من جنـــاس وطباق ورد العجز على الصدر ولعب بالالفاظ الى آخر هذه الانواع التى عكف البلاغيون المتأثرون بعلم المنطق على صياغة قواعدها واقبل عليها الشعراء السطحيون تعويضـــا عما افتقدوه من مواقف كبرى فى مواجهة الحياة التى كانت تتردى بهم الى حيث لا يعلمون ولا يقدرون على مقاومته . كان عصر المتنبى وأبى العلاء وأبى فراس قد انقضى وبدأت عصور الضعف ولكن ذلك لا يعنى أن القصيدة تعانى من هـــذه الامراض الفنيـــة . ولـــكن القصيدة قد كتبت فى لغة تمت الى عصر العمالقة من الشـــعراء باوثق الاسباب فهى جزلة . متينة الصياغة حافلة بالصور القوية الاخاذة تقترب من القصـــيدة الجاهليـــة فى وصفها للراحلة وتندمج فى القصيدة العباسية وهى تتحـــدث عن الخمريات ولكنها تؤكد بكل وضوح انها بنت عصرها الذى كتبت فيه وانها جسدت مأساويته وارتفعت فى أسلوبها الى التعبير الشـــامل الذى يبدأ من التجربة الجزئية الخاصة ويصل الى العام . وتلمع خلالها ابيات قد تختلف معها من الناحية الفكرية حين نفهم الصلة بين الانسان والعالم على أساس من الشك والخوف والريبة فى أطار من العزم واليأس ولكن الشاعر فى النهاية ليس مفكرا انه شاعر يستخدم أدوات باللغةالحساسية لينفذ الى صميم وجداننا .

اشتهرت لامية العجم كواحدة من افضل قصائد الشـــعر العربى واشتهر بها الطغرائى فهل هى قصيدة فى الحكمة كما يوحى نصفها الاخير ؟

ام هى قصيدة فى الشكوى كما توحى معظم ابياتها ؟ ام هى قصيدة متعددة الاغراض وان كانت تعبر فى حذق ومهارة وصدق نادر عن ازمة حادة يعيشها الشاعر . هى ازمة حياته كلها بل الصحيح انها ازمة العصر الذى عاش فيه الحكم السلجوقى الذى انهى دولة بنى بويه واقام اساس ملكه على شريعة النظم المأساوية التى اقامها الغدر والمكيدة والطمع وشهوة التسلط والسلطان. ان اعظم اسباب نجاح هذه القصيدة وذيوعها هى انها صادقة كل الصدق فى خلق صورة حية نابضة لادق مشاعر قائلها . طموحه ومعاناته وفشله . كما انها كذلك صورة حية رنانة من الحكمة التى تذكرنا بمجد ابى الطيب المتنبى وسوداوية ابى العلاء المعرى وانما هى عمل من الاعمال النادرة التى يقيض لها ان تكون شاهدا يطفح بالمرارة على قسوة العصر الذى قيلت فيه وذاتية الشاعر واضحة منذ الافتتاحية المباشرة التى توشك ان تزج بالقصيدة فى غرض تقليدى من اغراض الشعر وهو الفخر حين يقول :

اصالة الرأى صانتنى عن الخطل وحلية الفضل زانتنى عن العطل
مجدى اخيرا ومجدى اولا شرع والشمس راد الضحى كالشمس فى الطفل

المباشرة التى تسود التعبير لا تنفرنا ولا تبعدنا عن التعاطف مع القصيدة لانها صيغت فى بناء متماسك يذكرنا بافتتاحيات المتنبى الجهيرة وصوره الشعرية القوية .

ويبدو ان الشاعر الذى عانى القسوة والكراهية والحسد من جانب المحيطين به قد شعر بضعفه واحباط مساعيه ولانه شاعر طموح قوى النفس بعيد الهمة لا يستسلم ولا ييأس فقد آثر أن يرفع فى وجه فشله بسيف الفخر والثقة فى النفس . ولكن هذا الصوت المتفاخر الشامخ لا يلبث ان يهوى فجأة الى هاوية الاحساس بالغربة والوحشة والفقد وان كان فى تشبيه نفسه بالسيف الذى يخلو من العيب وكأنما يشير الى ان حاله التى هو عليها بما فيها من شقاء لا تعزى لعيب فيه وانما لخلل فى زمانه . لقد رسم فى بداية القصيدة صورة درامية لازمة نفس عالية الهمة . نفس بطل لا يقبل الهزيمة ولا الفشل ، فهو رجل ماجد ولكن الازمة تمسك بخناقه فهو غريب فقير وحيد كل شىء فى حياته يعانى من غياب ما يكفيه ويسعده بينما هو رجل همه فى طلب المعالى ان هدنه واضح ■

أريد بسطة كف استعين بها على قضاء حقوق للعلى قبلى

هو يريد أن يقوم بالتزاماته تجاه المجد فعليه واجبات أساسية للعلا لابد من القيام بها ولكن الدهر يعاند ويعكس له الآمال ويضطره

الى التراجع وللرضى من الغنيمة بالاياب . ان شخصية الشاعر تتبدى قوية حازمة مصرة على تحقيق هدفها في الحياة ورغم قوة مايعانيه الا انه عازم على المضي وعدم الاستكانة الى حيث ترغمه الاقدار التي يسميها الدهر . فها هو يأخذ بزمام راحلته جسورا مقداما الى حيث يهوى وماذا يفعل وقد كتب عليه أن يكون حبه في موضع به أعداؤه ويا له من اختيار صعب أن يكون الحب في مكان واحد مع البغض أو تكون العداوة حارسة للحب ها هو يخاطب جواده :

فسر بنا في ذمام الليل مهتديا بنفحة الطيب تهدينا الى الجلل
فالحب حيث العدى والاسد رابضة نصالها بمياه الغنج والكحل

والحقيقة ان الشاعر قد أدخل حديث الحب فجأة وهو يسرع براحلته الى طلب المعالي كحيلة شعرية للتخفيف من صرامة الاسترسال في حديث الجد وقعقعة السلاح فراى أن يروح عن متلقي شعره بهذه الفاكهة الحلوة التي تطيب بها النفوس والتي كان الشعراء القدامى يصدرون بها قصائدهم طلبا لاقبال الاذان على شعرهم ولا شك ان هذا الاحساس يؤكد رهافة مشاعر الطغرائي وبراعته في صياغة عمله الفني. ولكن ذلك الجزء من القصيدة لا يعد مجرد فاصل رقيق من المشاعر الناعمة للتخفيف من احتدام الازمة القاسية التي تحاصره وانما هي جزء رمزي يشير الى أن هدف الشاعر وأمانيه وأحلامه تتبدى له غراما تولع به النفس وعشقا تسعد به القلوب وتبذل من أجله التضحيات ويسهل من أجله الصعب . واذا كان الشاعر قد كرس الجزء الاول من القصيدة لكشف مأساته ومعاناته كبطل تراجيدي يدخل في صراع مرير مع الواقع من أجل تحقيق أحلامه فقد كرس الجزء الاخير لما يمكن أن نطلق عليه شعر الحكمة . ويا لها من حكمة بالغة القسوة تلك التي تمخضت منها تجاربه الاليمة . لقد حاول الشاعر أن يضع نتائج تجاربه في قاعدة شعرية عامة تقف على حدود الفلسفة وعلى أبواب الشعر متخذة من التعميم صورتها النهائية . وهذه الابيات تبدأ بالبيت الذي يقول :

حب السلامة يثني هم صاحبه عن المعالي ويغري المرء بالكسل

هذه الابيات تحتفل بها كتب الادب كجزء عزيز من ادب الحكمة . ولا شك أن هذا البيت يقف كموعظة بليغة صادقة في التعبير عن موقف من الحياة يحكم عليها بالسلبية والموت . فلا شك أن ايثار السلامة هو الذي يقود الى الجمود والسلبية في الحياة وقد يكون سببا قويا في حرماننا من الحياة نفسها . ثم يحدد الشاعر طريق الكرامة والمجد

في الرحلة والترحال والحركة الدائمة وهكذا كانت حياته وهو يعلي بصورة قوية من دوافع الامل في الحياة . فهذا الامل هو خيط الفجر الذي يؤذن بانتهاء الليل

أعـــلل النفس بالآمـــــال أرقبهـــــا ما أضـــيق العيش لولا نسمة الامل

ان ابيات هذا الجزء من القصيدة تمزج الشكوى بالحكمة بالفخـــر بالموعظة في اطار من ادانة العصر متهما الحظ . هذه الصيغة الغامضة للاقدار والظروف المحيطة بانه هو الذي يتنكر له ويمشي في ركاب من هم اقل منه في كل شيء .

تقـــدمتني أنـــاس كـــان شـــوطهم وراء خطـــــوي اذ امشي على مهـــل

ولاول مرة في القصيدة يلوم الشاعر نفسه وان كان هذا اللوم يأتي في صـــــيغة عامة تصلح لكل امرىء يعـــــاتب نفسه في لحظـــــة الفشـــــــل :

هـــذا جـــزاء امرىء أقرانه درجـــوا من قبلـــه فتمنى فســـــحة الاجـــل

والشاعر يلجأ الى نوع من الاقيسة المنطقية الهشـــة التي ندرك من اول وهلة تهافتها ولكنها مجرد عزاء غير مؤكد لهم نفس أصابها الفشل. واذا كانت تجـــربة الشـــاعر قد حركت روحه الى ينابيع الحـــكمة في بعض الابيات فارتوت منها وحاولت أن تقربنا من منهلها العذب فان تجربة الشـــاعر ايضا قـــد دفعت نفســـه المفعمة بالمرارة الى نوع من القسوة التي تفتقد الى الانصاف في الحكم على الحياة والاحياء . واذا كان الشـــاعر قد حاول أن يخلص من ذاته الى اطار عام من القواعد العامة والحـــكم الجليلة فان ذاته قد عادت لتسيطر بسوداوية قاتمة على صـــورة العالم المحيط به . هذا العالم الذي رأى فيه الشـــاعر عـــدوا ماكرا لئيما دائم الغدر والكذب ورأى في الناس صورة من الشر والقسوة والبغض فانتفى في هذا العالم وفي هؤلاء الناس الوفاء والحب والتكافل والثقة حتى لنجد الشاعر يدلي بأحكامه اليائسة في وجه الجميع فيتهم الاقربين ويشك في الجميع ولا يجد سندا له الا في قوته الذاتية وحدها .

ها هـــو يجانب الانصـــاف والموضوعية ويستسلم للغضب وعـــدم الثقـــة فيقول :

عـــدى مـــدوك من وثقت بـــــه فحاذر النـــاس واصحبهم على دخل
وانما رجل الدنيا وواحدهـــــا من لا يعول في الدنيـــــا على رجـــــل

وتدخل القصيدة من هذا المنعطف الى اليأس فقد اسودت الدنيا في وجهه وها هو يرى أن حسن الظن بالناس نوع من العجز ويعلن غياب

الوفاء وتفشي الغدر ومخالفة القول للعمل . وكان لابد أن يقوده عدم الموضوعية والغضب والسخط والتبرم الى ان يشعر باليأس يطوق خطواته . ذلك لانه بعد أن أحكم الحصار حول اعناق النساس فكأنه في الواقع قد أحكمها حول عنقه هو نفسه أولا . من هنا يواجه الشاعر حياته خائرا القوى يائسا . لا قبل له بما هو مقبل عليه . لقد ضاع الامل من الشاعر فثقل عليه كل شيء .

فيم اعتراضك لج البحر تركبه وانت تكفيك منه مصة الوشل

بدأ الشاعر يحدث نفسه بالاقتناع بالقليل بدلا من الطمع في الكثير فالقناعة لا تحتاج الى الانصار الذين يخذلون ولا الى الاعوان الذين يغدرون وهما هو يصل الى قمة الدراما انها التخلي عن الحياة ذاتها :

ترجو البقاء بدار لا ثبات لها فهل سمعت بظل غير منتقل

ان القصيدة تتطور بطريقة درامية من موقف الازمة الى موقف الهزيمة لتصور محنة شاعر التف حول ذاته وسيطر عليه طموحه ورأى في هذا العالم كله اعداء له . انه بطل تراجيدي يواجه قدرا صنعه بنفسه ليسقط في النهاية ضحية له . واذا كانت القصيدة تحفل بقيم ايجابية كثيرة في مقدمتها اعلاء شأن الامل فان موقف الشاعر الاساسي كان من اعظم سلبياتها هذا الموقف هو رؤية العالم من زاوية خاصة جدا رؤية تقول اما أن يكون هذا العالم في خدمتي أو فليذهب الى الجحيم ، ولا نستطيع بالطبع أن نصل الى حكم قاس على هذا الشاعر وحده الذي قتله طموحه لان هذا الحكم ينبغي أن يشمل العصر الذي عاش فيه وغرس في نفسه هذه البذور المريرة التي تجلت في هذه الحكمة القاسية التي حدثتنا عنها قصيدته .

ان شخصية الصفرائي مثل شخصية المتنبي . مأساوية في جوهرها لانها وجدت نفسها محاصرة بين واقع لا تريده وآمال لا تقدر عليها ، ويا له من مصير فاجع مشترك بين المتنبي والطغرائي .

ابـــو الهـــول

لامير الشعراء احمد شوقى

القصـــــيدة

ابا الهول : طـــال عليـــك العصر ... وبلغت فى الارض اقصى العمـــر
ايالدة الدهر : لا الدهر شـــب ولا انت جاوزت حـــد الصـــغر
الام ركوبـــك متـــن الرمـــا ... ل لطى الاصيل وجوب الســـحر
تســـافر منتقـــلا فى القرون ... ن فايان تلقى غبـــار الســـفر
ابينك مهـــد وبين الجبـــال ... ل تزولان فى الموعـــد المنتظـــر

***

ابا الهـــول : ماذا وراء البقـــا ... ء ـــ اذا ما نطاول ـــ غير الضجر
عجبت للقمـــان فى حرصـــه ... على لبد والنســـور الاخـــر
وشـــكوى لبيد لطول الحيـــا ... ة ولو لم تطـــل لتشـــكى القصر
ولو وجدت فيك يا ابن الصـــفا ... ة لحقت بصانعك .. المقتـــدر
فان الحيـــاة تفـــل الحديـــ ... ـــد اذا لبسته وتبـــلى الحجـــر
ابا الهول ما انت فى المعضـــلا ... ت لقد ضلت السبل فيك الفـــكر
تحـــيرت البـــدو ماذا تكـــون ... ن وضـــلت بوادى الظنون الحضر
فكنت لهم صـــورة العنفـــوا ... ن وكنت مثـــال الحجى والبصر
وســـرك فى حجبـــه كلمـــا ... اطلت عليه الظنـــون اســـتتر
وما راعهم غير رأس الرجـــا ... ل على هيكل من ذوات الظفـــر
ولو صوروا من نواحى الطبـــا ... ع توالوا عليك ســـباع الصـــور
فيارب وجه كمـــا فى النمـــ ... ـــير تشـــابه حـــامله والنمر
ابا الهـــول ويحك لا يستقـــ ... ـــل مع الدهر شىء ولا يحتقـــر
تهزات دهـــرا بديك الصـــباح ... فنقـــر عينيـــك فيما نقـــر
اسال البياض وسل الســـواد ... وأوغل منقـــاره فى الحفـــر
فعـــدت كانك ذو المحبســـين ... قطيـــع القيـــام ســـليب البصر
كان الرمـــال على جانبيـــك ... ك وبـــين يديك ذنوب البشـــر
كانك فيهـــا لواء القضـــاء ... على الارض اوديبان التـــدر
كانك صـــاحب رمـــل يـــرى ... خبايا الغيوب خلال الســـطر

***

ابا الهـــول انت نديم الزمـــان ... ن نجى الاوان ســـمير العصر
بســـطت ذراعيـــك من آدم ... ووليت وجهك شـــطر الزمـــر

تطل على عالم يستهل ... ل وتوفى على عالم يحتضر
فعين الى من بدا للوجو ... د واخرى مشيعة من غبر
فحدث فقد يهتدى بالحديث ... وخبر فقد يؤنس بالخبر
الم تبل فرعون فى عزه ... الى الشمس معتزيا والقمر
ظليل الحضارة فى الاولين ... ن رفيع البناء جليل الاثر
يؤسس فى الارض للغابرين ويغرس للآخرين الثمر
وراعك ما راع من خيل تمبيز وترمى سنابكها بالشرر
جوارف بالنار تغزو البلاد ... د وآونة بالقنا المشتجر
وابصرت اسكندرا فى الملا ... قشيب الملا فى الشباب النضر
تبلج فى مصر اكليله ... فلم يعد الملك عمر الزهر
وشاهدت قيصر كيف استبد ... د وكيف اذل بمصر القصر
وكيف تجبر اعوانه ... وساقوا الخلائق سوق الحمر
وكيف ابتلوا بقتايل العديـ ... ـد من الفاتحين كريم النفر
رمى تاج قيصر رمى الزجا ... ج وفل الجموع وثل السرر
فدع كل طاغية للزمان ... ن فان الزمان يقيم المسعر
رايت الديانات فى نظمها ... وحين وهى سلكها وانتثر
تشاد البيوت لها كالبروج ... ج اذا اخذ الطرف فيها انحسر
تلاقى اساسا وشم الجبال ... ل كما تتلاقى اصول الشجر
وايزيس خلف مقاصيرها ... تخطى الملوك اليها الستر
تضيء على صفحات السماء ... وتشرق فى الارض منها الحجر
وآبيس فى نيره العالمو ... ن وبعض العقائد نير عسر
تساس به معضلات الامو ... ر ويرجى النعيم وتخشى سقر
ولا يشعر القوم الا به ... ولو اخذته المدى ما شعر
يقل ابو المسك عبدا له ... وان صاغ احمد فيه الدرر
وآنست موسى وتابوته ... ونور العصى والوصايا الغرر
وعيسى يلم رداء الحيا ... ء ومريم تجمع ذيل الخفر
وعمرو يسوق بمصر الصحا ... ب ويزجى الكتاب ويحدو السرر
فكيف رأيت الهدى والضلا ... ل ودنيا الملوك وأخرى عمر
ونبذ المقوقس عهد الفجو ... ر واخذ المقوقس عهد الفجر
وتبديله ظلمات الضلال ... ل بصبح الهداية لمة سفر
وتأليفه القبط والمسلمين ... ن كما الفت بالولاء الاسر
أبا الهول لو لم تكن آية ... لكان وفاؤك احدى العبر
اطلت على الهرمين الوقوف ... ف . كتاكلة لا تريم الخفر
ترجى لبانيهما عودة ... وكيف يعود الرميم النخر
تجوس بعين خلال الديا ... ر وترمى بأخرى فضاء النهر
تروم بمنفيس بيض الظبا ... وسمر القنا والخميس الدثر
ومهد العلوم الخطير الجلال ... وعهد الفنون الجليل الخطر
فلا تستبين سوى قرية ... أجد محاسنها ما اندثر
تكاد لاغراقها فى الجمود ... د اذا الارض دارت بها لم تدر
فهل من يبلغ عنا الاصول ... ل بأن الفروع اقتدت بالسير
وانا خطبنا حسان الملا ... وسقنا لها الغالى المدخر

وانا ركبنـــا غمـــار الامـــور ... ر وانا نزلنـــا الى المؤتمـــر
بكل مبين شـــديد اللـــدا ... د وكل اريب بعيـــد النظـــر
تطـــالب بالحـــق فى امـــة ... جرى دمهـــا دونـــه وانتشر
ولم تفتخـــر بأســـا طيلهـــا ... ولكن بدســـتورها تفتخـــر
فلم يبق غـــيرك من لم يخـف ... ولم يبق غـــيرك من لم يطـــر
تحرك ابا الهـول هذا الزمـــا ... ن تحرك ما فيه حتى الحجـــر

وعلى لسان ابى الهول جاءت هذه الابيات :

نجبـــى أبى الهـــول آن الاوان ... ن ودان الزمـــان ولان القـــدر
خبـــأت لتومـــك ما يســـتقرو ... ن ولا يخبأ العذب مثل الحجـــر
فعندى المـــلوك باعيانهـــا ... وعندى التوابيت منهـــا الأثـــر
محا ظلمة اليأس صـــبح الرجـــا ... ء وهذا هـــو الفلق المنتظـــر

شاعر هذه الخريدة هو أمير الشعراء احمد شوقى الذى شـــغل الناس فى هذا العصر الحديث كما شـــغلهم ابو الطيب المتنبى فى القرن الرابع الهجرى والقرون التالية له . ذلك لان كلا الشاعرين قد بهر الناس بهذا الشعر الرفيع الذى جعل من اللغة مادة سحرية تنفذ الى الوجدان الراكد فتحركه وتدفعه الى السمو باحلامه الى عنان السماء . ومهما يكن من امر المقارنة بين المتنبى وشوقى وتقديم كل منهما على الآخر فان الامر الذى لا يمارى فيه احد ان شوقى والمتنبى عملاقان شاهقان اوتى كل منهما موهبة كبيرة على صياغة رؤاه بأقصى مهارة تقدر عليها اللغة وتستجيب لها واذا كان حظ المتنبى قد قضى له الحرمان والشقاء والاحباط فكأن الاقدار قد ارادت التكفير عن ظلمها للمتنبى او ظلم المتنبى لنفســـه فمنحت شوقى الرفعة والرخاء والقرب من الملوك مشمولا بالرضى ولعل هذا ان يقضى قضاء حاسما على فـــكرة شاعت طويلا بين بعض الادباء باقامة عـــلاقة متعسفة بين الحرمان والابداع الرفيع . فها هو شوقى يبدع بلا حرمان وها هو المتنبى يبدع وسط حرمانه ان المعول دائما انما هو على الموهبة والارادة الصادقة التى تقف وراء هذه الموهبة .

ولد أحمد شوقى فى ١٦ أكتوبر عام ١٨٧٠ لاسرة اختلطت فيهـــا الدماء المصرية التركية اليونانية وكان رب هذه الاسرة يعمل فى معيـــة الخديوى والتحق بمدرسة الحقوق عام ١٨٨٥ وبقى بها حتى عام ١٨٨٩ وفى عام ١٨٩٠ عينه الخديوى توفيق فى قلم الســـكرتارية الخـــديوية بقسم الترجمـــة حتى عام ١٨٩٣ حيث ســـافر فى بعثـــة على نفقـــة الخـــديوى توفيق الى فرنســـا ليكمل دراسته فى الحقوق فقضاها بين مونبليه وباريس وزار خلالها انجلترا والجزائر وكثيرا من قرى ومـــدن الجنوب الفرنسى وفى عام ١٨٩٦ أوفدته الحكومة المصرية ممثلا لهـــا فى

مؤتمر المستشرقين فى جنيف حيث القى قصيدته الطويلة « كبار الحوادث فى وادى النيل » ثم سافر من هناك فى رحلة الى بلجيكا وقد نشر الجزء الاول من ديوانه الشوقيات عام ١٩٠٠ نفى الى اسبانيا فى الفترة من ١٩١٥ حتى ١٩١٩ وفى عام ١٩٢٤ عين عضوا بمجلس الشيوخ بايعته وفود الدول العربية فى ٢٩ ابريل عام ١٩٢٧ امير للشعراء وكان الاحتفال بتنصيبه اميرا للشعراء قد اقيم فى دار الاوبرا بالقاهرة ولقى ربه فى الرابع عشر من اكتوبر عام ١٩٣٢ عن اثنتين وستين سنة .

تعتبر الشوقيات هى العمل الشعرى الرئيسى لاحمد شوقى وهى ديوان من اربعة اجزاء يتناول الجزء الاول رؤيته السياسية والتاريخية والاجتماعية وفى هذا الجزء الهام يتضح اهتمام شوقى الكبير باحداث عصره اما الجزء الثانى فيضم قصائده فى الوصف والنسيب وبعض الاغراض الاخرى ويكاد الجزء الثالث ان يكون مكرسا كله لشعر الرثاء وقد طبع الجزء الرابع بعد وفاته ويشتمل على قصائد فى السياسة والتاريخ وبعض القصائد التى اطلق عليها جامعها اسم الخصوصيات وكذلك بعض الحكايات الشعرية تدور على لسان الحيوانات « شبيهة بقصص « كليلة ودمنة » وقصص لافونتين فى اللغة الفرنسية . وقد صدر عام ١٩٦١ و ١٩٦٢ عن الهيئة العامة للكتاب ما عرف باسم الشوقيات المجهولة فى جزاين جمعها وعلق عليها الدكتور محمد صبرى السربونى .

كان شوقى رائدا فى مجال المسرح الشعرى فهو الذى اسس لهذا الفن مدرسة هامة فى الشعر العربى المعاصر . وقد كتب شوقى عددا من المسرحيات الشعرية هى : على بك الكبير ومصرع كليوباتره ومجنون ليلى وقمبيز وعنترة واميرة الاندلس . والست هدى وهى ملهاة واقعية .

يقول احمد شوقى فى مقدمة الشوقيات :

« انى قرعت ابواب الشعر وانا لا اعلم من حقيقته ما اعلمه اليوم ولا احد امامى غير دواوين للموتى لا مظهر للشعر فيها وقصائد للاحياء يحذون فيها حذو القدماء ثم يتحدث عن وظيفة الشعر فيقول :

على ان الشعر ليس من حاجات العمران المادى الذى تتوقف عليه سعادة الانسان فى هذه الحياة الدنيا ولكنه من كماليات العمران الادبى الذى تسأم النفس عنده الحقيقة المجسدة والمادة المجردة وتميل فى بعض اوقاتها الى التنقل بشعورها من عالم الى آخر ومن فضاء الى سواه ولعل هذه هى الحكمة فى كون الشعراء قليلا عديدهم فى كل زمان ومكان لا تعطى الامم منهم الا بقدر حاجتها اليهم » .

وقد تعرض شوقي لكثير من النقد وهذا النقد نفسه كان يقدر قيمة شوقي كشاعر بلغ بالاطار التقليدي القمة في الصياغة والاداء واسفرت الحملات النقدية بالطبع عن تطور حتمي في مسيرة الشعر وكانت مدرسة الديوان العقاد والمازني من اشد النقاد الذين تعرضوا لشوقي بالنقد الذي تطرف الى التجريح في بعض الاحيان . واذا كان هذا النقد قد صحح بعض المعايير الفنية لدى الاجيال الطالعة فانه في نفس الوقت لم يهدم هذا الصرح الفني العظيم الذي شاده شوقي بعبقريته النادرة واذا كانشو قي يتعرض للنقد فما ذلك الا لافساح الطريق امام ابداع معاصر يلائم روح العصر حتى يتمكن الشعر من التخلص من التقليد الاعمى والمسايرة الفنية التي درج عليها انصاف الموهوبين .

قصيدة ابي الهول التي نحن بصددها واحدة من روائع امير الشعراء التي اكتملت فيها عناصر شاعرية هذا الشاعر العظيم ففيها تتجلى هذه الرؤيا التاريخية الشاسعة الاطراف اتساعا وعمقا مما يدل على ثقافة الشاعر من ناحية وارتباطه الوجداني بهجوم وطنه من ناحية اخرى . وفيها هذا الجنوح الى تأمل رحلة الزمان تأملا ذا مستويين المستوى الاول هو المظهر الخارجي التاريخي وذلك من خلال سرد الاحداث وتتبع ظهور الممالك واختفائها والمستوى الثاني هو المستوى الميتافيزيقي وهو الذي يعلو على الحدث المباشر لحركة الحياة من الميلاد الى الموت ومن القوة الى الضعف . كل هذا من خلال هذا التمثال الباهر الذي يقوم شاخصا الى الصحراء وكأنه يشهد شهادة صامتة ساخرة على ما يحدث وما يجرى . ما يقوم وما يسقط .

الشاعر يبدأ بالاستفهام الذي ينبيء عن الدهشة والاعجاب والحيرة وكان الشاعر بهذا يسلكه في الاحياء وكيف لا وهو يحمل وجه انسان وجسد أسد أنه يشير بتكوينه الى اعظم ما في الحياة ــ العقل وذلك بالمظهر الانساني الذي يتمثل في وجهه والقوة التي تتمثل في جسده وكأن ابا الهول بمظهره المجيد الخالد يؤكد أن الطريق الى المجد والخلود انما يكون من طريق واحد هو مزج القوة بالحكمة وهل قالت الفلسفة والشعر والعلوم والفنون والحضارة اكثر من هذا ؟ وكما قال الشاعر الانجليزي شيلي انما ينقص الاقوياء الحكمة وينقص الحكماء القوة ــ شوقي يسلك ابا الهول في عداد الاحياء ولكنه يتساءل عن طول الرحلة في قلب الزمان وهذا المفتتح ليس اكثر من دهشة ومدخل الى التأمل العظيم فيما وراء هذا البقاء في الزمان .

ابا الهول ماذا وراء البقاء اذا ما تطاول غبر الضجر

ويدخل الشاعر من دهشة البقاء في الزمان الى دهشة التناقض الانساني ــ فها هو لقمان الحكيم يحرص على طول عمره الذي ارتبط

بأعمار سبعة نسور يهلك بعد هلاك آخرها وكان آخرها هو لبد الذى كان لقمان اشد حرصا عليه من النسور الاخرى وعلى الجانب الاخر من هذا الحرص نرى لبيد بن ربيعة يشكو طول عمره حيث يقول :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد

ولكن شوقى الذى بدأ بالايهام بأن الهول حى وذلك بالحديث معه من الضجر يسفر عن وجه الحقيقة يؤكد لابى الهول أن خلوه من الحياة هو الذى منحه البقاء . لان الحياة تفل الحديد وتبلى الحجر . اذا لبسته . وها هو يؤكد المعنى الذى ترمز له هيئة ابى الهول .

ورغم انه يصور حيرة الناس من بدو وحضر فى تفسير لغز هذا الماثل المهيب فى الصحراء الا انه يعبر فى الواقع عن حيرته هو نفسه انه يتساءل عن الاسرار المحجبة وها هو يعود الى التأمل بعد التساؤل فى الوضع الانسانى كما حدث بالضبط فى مقدمة القصيدة . بدأ بالتساؤل ثم ثنى بالتأمل وها هو يرد على دهشة الناس وحيرتهم بالدخول الى اعماق البشر . لماذا ينكرون هذه الهيئة الحيوانية الانسانية اليسوا هم ايضا كذلك : لو ان اجسادهم اخذت شكل صفاتهم لجاءت صورهم هكذا فى صورة الانسان الحيوان فلماذا يندهشون . الا يحسون بالحيوانية بداخلهم فكأنه يوحى بأن ابا الهول ليس الا تفسيرا تشريحيا لمفهوم الانسان تفسير تشريحى يتضمن اجابة اخلاقية عن الوضع الانسانى فى نفس الوقت :

فيا رب وجه كصافى النمير تشابه حامله والنمر

لاعجب اذن ان تجىء يا ابا الهول على هذا النحو الغريب . فانت لست الا انسانا ظهر على جسده ما كمن فى باطنه من صفات .

وها هو الشاعر احمد شوقى يلتمس فى خياله الشعرى مددا على تفسير هذه الخربشات الواضحة فى وجه ابى الهول مستدعيا فى ذهنه ابا العلاء المعرى وعراف الرمال وما شاءت له ظنونه أن تستدعى لمعرفة لغز هذه الحقيقة الكامنة فى هذا الصخر ثم يحاول بعد أن اعطاه صفة العراف أو المؤرخ او الشاهد على كل العصور ان ينطق بما يرى وبما رأى وان يفرض بالطبع رؤيته التاريخية مستخلصا من هذه الرؤية العظة الكبرى وهى فى الواقع هدف القصيدة فقد كان شوقى شاعرا وطنيا اخلاقيا كبيرا وتبدأ المسيرة الشعرية التاريخية بفرعون عزيزا فى ملكه ينتسب الى الشمس والقمر وها هو نمبيز والاسكندر وجنودهما ثم يأتى من بعد ذلك قيصر روما عجل ابيس — ايزيس . وتمضى مسيرة الغزاة بمصر الى ان يتوقف الشاعر وقفته الكبرى عند الفتح الاسلامى لمصر .

هنا يرى شوقى فى الاسلام نهاية لظلام الفجور وصبحا للهداية يطلع تحت رايات عمرو بن العاص . ولا ينسى الشاعر بعد هذه الوقفة مع الفتح الاسلامى لا ينسى دليله التاريخى أبا الهول فيناشده من جديد :

اطلت على الهرمين السوقوف كثيرا كلة لا تريم الحفير
ترجى لبانيهما عودة وكيف يعود الرميم النخير

اذن فأبو الهول يقف منتظرا عودة الفراعنة ولكن شوقى يستبعد هذه العودة هل أحس الشاعر بلوعة التمثال وكأنه غريب فى الزمان يهاجر الى زمنه الاول محلقا بحثا عن المجد والرخاء والقوة ـــ لا شك أن هاجس القوة كان يحتل فى نفس الشاعر مكانا واضحا . فمصر كانت تبحث عن ذاتها فى ذلك الوقت ومن الطبيعى أن يقوم الشاعر بهذا التشريح التاريخى مركزا على قيمتين اساسيتين هما : القوة ـــ والعقل وكأنه بهذا يشير الى وطنه موضحا من خلال جلال التاريخ ان طريق النهوض والبعث لابد له من هاتين القيمتين .

ولعل الحسرة تتبدى له وهو ينظر الى عاصمة المجد القديمة ممفيس وقد انحطت الى قرية أجد ما فيها ما قد اندثر . وما أروع هذه الصورة الباهرة للجمود . جمود هذه القرية التى كانت فى الماضى عاصمة للحضارة الفرعونية .

تكاد لاغراقها فى الجمود اذا دارت الارض بها لم تدر

ثم يدعو الشاعر الى النهضة والاقتداء بالاجداد :

فهل من يبلغ عنا الاصول بأن الفروع اقتدت بالسير

هو فى الواقع ينهى قصيدته بنوع من الرضى عن امته وعن خطواتها الشابة على مدارج الحضارة المعاصرة . وقد القيت هذه القصيدة فى حفل افتتاح مسرح الازبكية « المسرح القومى حاليا وكان تمثال لابى الهول قد اقيم فى فناء هذا المسرح فلما تم الصوت الاول الذى القى القصيدة الابيات التى قالها شوقى مسائلا ابى الهول نهض صوت آخر ليعلن أن الصبح طلع ثم انشق صدر ابى الهول عن فتى وفتاة مثلا أمامه وانشدا نشيدا مطلعه :

اليوم نسود بوادينا ونعيد محاسن ماضينا

تؤكد هذه القصيدة أول ما تؤكد ثقافة شوقى الواسعة ووطنيته وغيرته على بلاده وهى تعطى صورة حية عامرة بالاحساس لهذه

العبقرية الشعرية التى تألقت ولم تخب أبدا أن البحر المتقارب يستجيب لهذا السرد التاريخى الذى حاول الشاعر أن يلتقطه من العصور المختلفة ولكن هذا البحر نفسه يتوتر ويصعد فى لحظات التأمل الميتافيزيقية ليلائم اللحظة النفسية التى يمر بها الشاعر . ان اللغة تكتسب مرونتها وقوتها من مهارة الموهبة التى تستخدمها وقد كان شوقى عبقريا حقا فى صقل ديباجته الشعرية حتى صعد الشعر على يديه الى ذروة عالية . واذا كان شوقى قد انشد الانسانية هذه القصائد الباقية فان هذه القصائد نفسها لن تكف عن اعطاء ابهى الصور وازهاها لشاعرية أمير الشعراء احمد شوقى .

الخـــريف

للشاعر الدكتور ابراهيم ناجى

التصـــــــيدة

يا حبيبى غيمة فى خاطـــــرى ... وجفونى وعلى الأفق ســـــحابه
غفـــر الله لهـــا ما صـــنعت ... كلمـــا شاكيتها تندى كآبـــه
صرخ القفـر لهـــا منتحبـــا ... وبكى مستعطفا ممـــا أصـــابه
فأصم الغيث عنـــه اذنـــه ... ما على الايام لـــو كان أجـــابه

كثر الهجر على القلب فهـــل ... من ســـلو او بعاد يرتضـــيه
أنت فجر من جمـــال وصـــبا ... كل فجر طـــالع ذكرنيـــه
كيف جانبتـــك ابغى ســـلوة ... ثـم ناجيتـــك فى كل شـــبيه
أيا الســـاكن عينى ودمـــى ... اين فى الدنيـــا مكان لست فيه

عند أزمـــع ركب العمـــر ... رحلة نحو المغـــانى الأخـــر
ظهرت تجلوك كـــف القـــدر ... صـــورة اروع مافى الصـــور
نتراءى فى الشـــباب العطـــر ... نفحة تحمـــل طيب الســـحر
وقـــف العمـــر لهـــا معتذرا ... وثنى الركب عنـــان الســـفر

عندما اقفرت الدنيا جميعـــا ... لحت لى تحمل عمرا وربيعـــا
ان يكن حلمـــا تولى مسرعـــا ... اجمل الاحلام ما ولى سريعـــا
ان يكن مـــا كان دنيـــا يقتضى ... خلنى ادفعـــه عنك دموعـــا
قد شربناه عـــزيزا غاليـــا ... ان تكن بعـــت فانى لن أبيعـــا

يا ندامى الحب ســـمار الهوى ... سكبوا لى السهد فى ذاك الشراب
أرقنى أجـــرع الســـقم وبى ... صفرة الكأس واوهام الحبـــاب
كلمـــا تقبـــل أيام المنـــى ... تنجلى النعمـــاء من ذاك السراب
وترى أيامـــى الحســـرى على ... عرسها الضاحك احزان الضباب

لم اقيـــدك بشـــىء فى الهوى ... انت من حبى ومن وجـــدى طليق
الهوى الخالص قيـــد وحـــده ... رب حر وهو فى قيـــد وثيـــق
مزقت كفيك أشـــواك الهـــوى ... وانا ضـــقت بأحجـــار الطريق
كـــم ظمـــى بظمـــى يرتوى ... وغريق مســـتعين بغريـــق

ياليـــالى العمر ما سر الليـــالى ... البطيئـــات المـــلات الطوال
مسرعات مبطئات ولهـــا ... خفة الموت واثقـــال الجبـــال

كاسفات البال عرجاء المنى ... عاثرات الحظ شوهاء الظلال
عجبا للعمر يمضى مسرعا ... للمنايا بسلحفاة الملال

يا قمارى الروض فى أيك الهوى ... جفت الروضة من بعد النديم
حل بالايك خريف منكسر ... وظلال قاتمات وغيوم
ماتت الروضة الا طائفا ... من هوى حى على الذكرى يقوم
فاذا انكر ما حل بها ... فر يبغى سربه بين النجوم

شاهت الدنيا وجوها ورؤى ... وتولاها سهوم ووجوم
يا عذارى الحسن فى ظل الصبا ... كل حسن بعد ليلاى دميم
يا نعيم العيش فى ظل الرضا ... آه لو أعرف ماطعم النعيم
أنكر الجنة قلب ضجر ... أبدى النار موصول الجحيم

طالما موهت بالضحك فما ... غير التمويه رأيا لك فيا
كلما تنظر فى عينى ترى ... سرى الغافى ومعنى الخفيا
وترى فى عمق روحى زهرة ... قد سقاها الحزن دمعا أبديا
ويراه الناس طلا وترى ... أنت دمعا غائما فى مقلتيا

يا فؤادى ما ترى هذا الغروب ... ما ترى فيه انهيار العمر ؟
ما ترى فيه غريقا ذا شحوب ... يتلاشى فى خضم القدر ؟
ما تراها اتأدت قبل المغيب ... ورمت من عرشها المنحدر
لفتة الحسرة للشط القريب ... قبل ان تسقط خلف النهر

يا فؤادى قاتل الله الضجر ... وعذابى بين حل وسفر
ما ترى قنطرة من بعدها ... راحة ترجى وبال يستقر
ذلك الجرح وما أفدحه ... ما عليه لوالى السلوى عبر
قد طواه اليوم فى بردته ... وأتى الليل عليه فانفجر

مر يومى فارغا منك ومن ... امل اللقيا فما أتعس يومى
أنت يومى وغدى أنت وما ... من زمان مر بى لم تك همى
آه كم أغدو صغيرا حاجتى ... لك كالطفل الى رحمة أم
ولكم اكبر بالحب الى أن ... اغتدى مستشرقا افاق نجم

اى سر فيك انى لست ادرى ... كل ما فيك من الاسرار يغرى
خطر ينساب من مفتر ثغر ... فتنة تعصف من لفتة نحر
قدر ينسج من خصلة شعر ... زورق يسبح فى موجة عطر
فى عباب غامض التيار يجرى ... واصلا ما بين عينيك وعمرى

ذات ليل والدجى يغمرنا ... اترى تذكر اذ جزنا المدينة ؟
كلما روعت من نار شج ... حرما يصلى تلمست جبينه

بيد شـــفافة مثـــل النندى الرطب تعيد النـــار بردا وســـكينه
ايهـــا الآســـى لنـــارى هذه ما الذى تصنع بالنار الدفينـــه

اخيـــالا كان هـــذا كـــله ذلك الجسر الذى كنا عليـــه
والمصـــابيح التى فى جانبيـــه ذلك النيل ومـــا فى شـــاطيئه
وشـــعاع طوفت فى مائـــه وظلال رســـبت فى ضـــفيته
وحبيـــب وادع فى ســـاعدى ووعود نلتهـــا من شـــفتيه

رب لحـــن قص فى خاطـــرنا قصة الحادى الذى غنى سهاده
وكان الصـــمت منه واحـــة هيأت من عشبها الرطب وساده
ها اناعدت الى حيث التقينـــا فىمكان رفرفت فيه الســـعادة
وبه قد رفرف الصمت علينـــا ان فى صمت المحبين عبـــادة

رفرف الصـــمت ولـــكن اقبلت من اقاصى السهل اصـــداء بعيده
تتهادى فى عبـــاب ســـاحر مرسل للشـــط امواجـــا مديده
كـــم نداء خـــافت مبتعـــد تشتهى اذن الهوى ان تســـتعيده
عاد منســـابا الى اعماقهـــا هامســـا فيها بأصـــداء جديده

رفرف الصـــمت ولكن هاهنـــا كل ما فيـــك من الحسن يغنى
آه كم من وتـــر نـــام على صدر عود نوم غاف مطمئـــن
وبه شئى لحـــون من أســـس وحنـــين وانـــين وتمنـــى
رقد العاصـــف فيه وانطوت مهجة العود على صـــمت مرن

هذه الدنيا هجـــير كلهـــا اين فى الرمضـــاء ظل من ظلالك
ربما تزخـــر بالحسن ومـــا فى الدمى مهما غلت ســـر جمالك
ربمـــا تزخـــر بالنوروكـــم من ضـــياء وهو من غيرك حالك
لو جـــرت فى خاطرى اقصى المنى لتمنيت خيـــالا من خيـــالك

انا ان ضاقت بى الدنيـــا افىء لثوان رحبـــة قد وســـعتنا
انما الدنيـــا عبـــاب ضـــمنا وشطوط من حظوظ فرقتنـــا
ولقد أطفوا عليـــه قلقـــا غارقـــا فى لحظة قد جمعتنـــا
كلما تترى المعـــانى اجتـــلى خلف معناها لاسرارك معنـــى

ما الذى صبك صـــبا فى الفؤاد ما الذى ان اقصه عنى عـــاد
طاغيا يعصف عصفا بالرشـــاد ظامئا ســـيان قرب وبعـــاد
ساهر العينين موصول السهاد ما الذى يجرى لهيبا فى الرمـــاد
ما الذى يخلقنـــا من عـــدم ما الذى يجرى حياة فى الجمـــاد

كم حبيب بعـــدت صـــهباؤه وتبقت نفحـــة من حببـــه
فى نسيج خـــالد رغم البـــلى عبث الدهـــر ومـــا يعبث به
ما الذى فى خصلة من شـــعره ما الذى فى خطـــه أو كتبـــه

ما الذى فى اثـــر خلفـــــه من اناشين الهوى او عجبـــــه

مـــا الذى فى مجلس يألفـــه عقـــد الحب عليه موعـــده
ربمـــا يبكى اســـى كرسيه ان نأى عنـــه وتبكى المـــائدة
ربمـــا تحسبها هشـــت اذا عائد هش لهـــا او عائـــده
ربمـــا تحســـبها تســـألنا حـــين تمضى أفراق لعـــده

كم اعدت لك سترا فى الخفـــاء وتوارت عن عيون الرقيـــاء
كم اعدت نفســـها وانتظرت واستوت موحشة تحت السماء
وهى لو تمـــلك كفـــا صافحت كفك الحـــلوة فى كل مســـاء
وهى لو تمـــلك جودا بذلـــت كل ما تمـــلك كف من ســـخاء

رب كرم مده الليـــل لنـــا فتواثبنـــا له نبغى اقتطـــافه
وعلى خيمتـــه اســـوده عربى الجود شرقى الضـــيافة
وجـــد العرس على بهجتـــه وســـناه دون ورد فاضـــافه
ثـــم وارت يـــده جنبيـــة وطوته اســـاطير الخرافـــة

ارج يعبـــق فى انحـــائه حملتـــه نحو عرشـــينا الرياح
كل عطر فى ثنـــاياه ســـرى كان سرا مضـــمرا فيه فبـــاح
يالها من حقبـــة كانت عـــلى قصر فيهـــا كآماد فســـاح
نتمنى كلمـــا طـــابت لنـــا أن يظل الليل مجهول الصـــباح

يا فؤادى العمر ســـفر وانطوى وتبقت صـــفحة قبـــل النوى
ما الذى يغريك بالدنيا ســـوى ذلك الوجـــه وذياك الهـــوى

* * *

شاعر هذه القصيدة هو الشـــاعر الطبيب الدكتور ابراهيم ناجى واحد من ابرز من المثلين لهذا التيار الشعرى الذى عرف فى الثلاثينيات بتيار المدرسة الرومانسية او جماعة ابو للو التى اسسها الدكتور احمد زكى ابو شادى وراسها امير الشعراء احمد شوقى فترة قصيرة قبـــل وفاته . وقد انبثقت هذه المدرسة بمفهومها للشعر من الحملة النقدية التى قام بها عبـــاس العقاد والمـــازنى فى كتابهمـــا الهـــام الديون

نجاء شعر ناجى واقرانه ثورة جذرية تعبر عن طموح الذات للتعبير عن نفسها والخروج من الاطار التقليدى الذى رفع بقواعده العاليـــة احمد شوقى ومدرسته . وكان من بين شعراء مدرسة أبوللو البارزين الى جانب الدكتور ابراهيم ناجى . على محمود طه وابو القاسم الشـــابى واحمد زكى ابو شادى والتيجانى يوسف بشير ومحمود حسن اســـماعيل

وحسن كامل الصيرفى وغيرهم وكان ناجى يتميز بينهم بهذا الصوت المشحون بالالم الفياض بالعواطف الانسانية يتشح عالمه بهذا الحزن الغامر الذى يكتنف نفسه والطبيعة من حوله . وينوغل فى صميم علاقاته الانسانية . كان احساسه بالزمن احساسا رومانتيكيا فالزمن عنده ليس الخلود الذى يتجاوز نطلعاتنا وطموحنا ويسحقنا فى لامبالاة قاسية وانما الزمن مندمج بمفهوم الحياة فلا فصل بينهما . زمن خاص لان الحياة ذات مغزى خاص . ومن هنا فقد كانت رؤيته للزمن محدودة بأيام عمره . هذا العمر نفسه كان يجد حقيقته فى عاطفة واحدة وفى احساس واحد . هى عاطفة الحب والاحساس بالسعادة . وكان الحب شاحبا والسعادة غائبة على الدوام . ولد ابراهيم ناجى فى ٣١ ديسمبر عام ١٨٩٨ فى بيئة مثقفة محبة للعلم حيث كان والده يمتلك مكتبة غنية ولقد ادرك هذا الوالد منذ البداية علامات الموهبة بلوح فى مخايل ولده فوجهه للاستفادة منها . اعلنت شاعريته عن نفسها فى وقت مبكر فقد بدأ محاولاته الشعرية وهو فى الثالثة عشرة من عمره وكان اعجابه الاول بالشريف الرضى . تخرج فى كلية الطب عام ١٩٢٣ ومارس الطب لمدة اربع وعشرين سنة . بدأت مرحلة هامة من حياة الشاعر بظهور ديوانه الاول « وراء الغمام » عام ١٩٣٤ وقد قوبل هذا الديوان كما يقول الدكتور طه وادى فى كتابه « شعر ابراهيم ناجى الموقف والاداة » ــ « قوبل ديوان ناجى الاول بحفاوة بالغة ولكن نقد طه حسن قد اساءه وادمى روحه والحقيقة ان طه حسن قد ظلم الشاعر ناجى حين حكم على شعره باحكام لفظية عامة واتهمه بانه « شاعر هين لين » وان شعره اشبه بموسيقى الغرفة ثم اخذ يتتل الديوان وصاحبه بالملاحظات الجزئية المتناثرة حول قصيدة واحدة هى « قلب راقصة » ولعل ابلغ ما اساء اليه هو المقارنة غير العادلة بينه وبين على محمود طه حيث تعصب له طه حسين وفضله على ناجى » .

وقد اصدر ابراهيم ناجى بعد ديوانه الاول ديوانه الثانى « ليالى القاهرة » عام ١٩٤٤ ثم ديوانه الثالث « معبد الليل » عام ١٩٤٦ ثم صدر له بعد وفاته الجزء الاخير من ديوانه « الطائر الجريح » عام ١٩٥٣ . واصدر الاستاذ حسن توفيق خلال عام ١٩٧٨ بعض القصائد المجهولة للشاعر . وبهذا نستطيع ان نقول بأن الشاعر قد انشأ تراثا شعريا غزيرا يصل الى خمسة دواوين شعرية وقد توفى الشاعر فى ٢٥ مارس عام ١٩٥٣ بعد حياة مليئة بالاحزان الخاصة والعامة وقد تنفست هذه الاحزان فى قصائد دواوينه فملأتها رقة وعذوبة وان كانت الكآبة قد سيطرت على الجزء الاكبر من هذه القصائد . ومفهومه للشعر يتمثل فى هذه الكلمات التى اوردها فى مقدمة ديوانه الثانى «ليالى القاهرة» يقول الدكتور ابراهيم ناجى « الشعر عندى هو النافذة التى اطل منها على الحياة واشرف منها على الابد وما وراء الابد هو الهواء الذى اتنفسه وهو البلسم الذى داويت به نفسى عندما عز الاساه هذا هو شعرى » والحقيقة ان هذا المفهوم للشعر لا يكشف الا عن مواجع وآلام الشاعر

بدلا من الكشف عن اسرار الصنعة الفنية عنده فهو ليس معنيا بتحديد اصول نقدية للعملية الابداعية بقدر ما هو معنى بالافاضة عن نفسه . انه تلقائي في شعره وتلقائي في تعبيره عن هذا الشعر ولقد كان ـ شعره مرآة صافية لالامه . واحزانه . ولا شك انه كان ينكر ان يكون دوره هو الحديث عن الشعر بل كان الشعر همه الاوحد .

يقول الدكتور طه حسن في محاولة للتعريف بشعر ناجي « ليس الدكتور ناجي رجلا حسن البلاء صادق النية في حب الشعر فحسب وانما هو فوق هذا كله موفق الى حد بعيد فيما يحاول من ارضاء الشعر واصحابه موفق فيما قصد اليه من المعاني موفق فيما اصطنع من الالفاظ موفق فيما اتخذ من الاساليب . معانيه جديدة تصل احيانا الى الروعة الفاظه جيدة قد يعظم حظها من المتانة والرصانة واساليبه جيدة ايضا عظيمة الحظ من الصفاء لا يفسدها العوج ولا يفسدها الالتواء في كثير من الاحيان شاعر مجيد تألفه النفس ويصبو اليه القلب ويأنس اليه قارئه احيانا ويطرب له سامعيه دائما .. من هؤلاء الشعراء الذين يحسن ان تستمتع بما في شعرهم من الجمال . كما تستمتع بجمال الوردة الرقيقة النضرة دون نشتط عليها بالتقليب والتعذيب . هو شاعر هين لين رقيق حلو الصوت عذب النفس خفيف الروح قوى الجناح شعره اشبه بما يسميه الفرنجة موسيقى الغرفة منه بهذه الموسيقى الكبرى التي تذهب بك كل مذهب وتهيم بك فيما نعرف وما لا نعرف من الاجواء » ولا شك ان الرقة الصافية والهمس الرقيق الذي كانت تتضح بهما قصائد ناجي هي التي عرضته للاتهام بالضعف من قبل الدكتور طه حسين . وقد ادرك الناقد الدكتور مندور في كتابه « في الميزان الجديد » ان هذا الشعر الرقيق انما هو شعر انساني لا يدل على ضعف في تكوين الشخصية يقول الدكتور مندور موضحا نظريته الجديدة : « الهمس في الشعر ليس معناه الضعف فالشاعر القوى هو الذي يهمس فتحس صوته خارجا من اعماق نفسه في نغمات حارة ولكنه غير الخطابه التي تغلب على شعرنا فتفسده اذ تبعد به عن النفس عن الصدق عن الدنو من القلوب . الهمس ليس معناه الارتجال فيتغنى الطبع في غير جهد ولا احكام صناعة . وانما هو احساس بتأثير عناصر اللغة واستخدام تلك العناصر في تحريك النفوس وشفائها مما تجد وهذا في الغالب لا يكون من الشاعر عن وعي وانما هي غريزته المستنيرة لا تزال به حتى يقع على ما يريد . الهمس ليس معناه قصر الادب او الشعر على المشاعر الشخصية . فالاديب الانساني يحدثك عن اي شيء يهمس به فيثير فؤادك ولو كان موضوع حديثه ملابسات لا تمت اليك بسبب » وفي ضوء هذا الراي الجديد الذي نادى به الدكتور محمد مندور يمكن اعادة تقييم شعر ابراهيم ناجي الذي لحقه ظلم ادبي شديد :

قصيدة الخريف التي نحن بصددها هي احدى روائع ديوانه الثاني « ليالي القاهرة » وهي تعكس صورة حزينة لآمال خائبة وحب تولى

وذكريات تشع بالفرح حينا وبالحزن فى أكثر الاحيان . تبدأ القصيدة بصرخة رمزيه يطلقها الجدب الموحش فى النفس طالبا الارتواء . والشاعر يقرر من البداية ان الغيوم منعقدة فى خاطره وجفونه وعلى الافق ايضا فما هى هذه السحابة التى يراها الشاعر ام هى ثلاث غيمات مختلفة اغلب الظن ان الغيوم الثلاث رموز لثلاثة معان متباينة . فالغيمة الاولى التى يحملها فى خاطره انما هى رمز للذكرى التى يستعيدها الشاعر فلا تعود والغيمة التى يحملها فى جفونه هى غيمة الدموع التى تحتشد فى عينيه باحثة عن مخرج تخفف به عن نفس الشاعر اما السحابة المعلقة فى الافق فهى سحابة الامل التى يرجوها الشاعر ان تروى قفر حياته . ومن هنا فهو يركز حديثه ونداءه لها ولكنها لا تمطره الا الكآبة ولا تستجيب لبكائه واستعطافه. وما من شاعر يحاول ان يرسم صورة للخريف يمكن ان يكون اكثر توفيقا من هذه البداية المعتمة المجدبة التى لا يريد الغيث أن يمد لها يد العون . بعد هذه الصورة الرمزية التى جسد فيها الشاعر أحزان نفسه وعدم استجابة الواقع بالامل . يفصح الشاعر عن كوامن اللوعة فى نفسه . انه الهجر الذى ثقل على القلب وقد اختار الشاعر لفظ « كثر » بدلا من « ثقل » للدلال على ان الهجر ليس فقط هجر الحبيبة انما هو هجر كثير متعدد المصادر والدوافع . ويبحث الشاعر عن سلوى تريح قلبه او فراق يرضيه . ولكن سحر جمال المحبوبة قد سد امامه جميع المنافذ فهو قد ملأ عليه شغاف نفسه يحاصره حصارا محكما لا فكاك منه وما ابلغ تعبيره عن تمكن الحب من نفسه وامتلاء هذه النفس بمحبوبها حتى لتراه فى كل مكان .

ايها الساكن عينى ودمى اين فى الدنيا مكان لست فيه

فالعين وسيلة الرؤية والدم طريق الاحساس فهو يراها فى كل مكان ويحس بها ايضا . وهذا البيت لاستخدامه « العين والدم » قد بلغ الذروة فى كمال المعنى الذى ورد فى الشطر الثانى من البيت .

يحاول المؤلف ان يصور اغراء هذه الحبيبة وتفوقها فى المقطع الثالث . اما المقطع الرابع فهو تعبير عن جمال الاحلام السريعة التى يرى الشاعر ان سر جمالها فى سرعتها وهو يتصدى بدموعه للوفاء بدين الهوى الثقيل ولا يتردد الشاعر فى تمسكه بحبه معرضا من التفريط والبيع .

قد شربناه عزيزا غاليا ان تكن بعت فانى لن ابيعا

فى المقطع الخامس يتوجه الشاعر الى رفاقه لعل لديهم السلوى ولكننا نلاحظ المزج فى هذا المقطع بين المناقضات . فها هو السهد قد سكب فى الشراب وها هى ايام الشباب تنجلى عن الوهم ويمتزج العرس الضاحك بأحزان الضباب ان الشاعر يعلن عجزه وفشله وعدم قدرته على الفكاك من أسره الذى سقط فيه . ثم يرجع الى المحبوب مرة أخرى متوسلا راجيا باسطا يد العذر والاعتذار فهو فى الواقع لم يقيد هذا المحبوب بقيد يثقل عليه بل لقد ترك له الحرية المطلقة فالحب قيد خفى وهو لا يريد له مزيدا من الاغلال فالحب بأشواكه قد مزق كفى المحبوب بين صعاب الطريق تلك التى رمز اليها بالاحجار هى الاحجار قد أدمته ودفعت نفسه الى الضيق . وها هما مرتبطان بقدر واحد وكأنهما غريقان يمسك كل منهما بتلابيب الاخر . وينتقل الشاعر بعد ذلك الى التأمل . ان الهجر قد أورثه الاحساس ببطء الزمن . زمنه الداخلى الخاص ولكنه فى نفس الوقت يعى أن الزمن الخارجى الذى ينهى الاعمار يبلى والارواح ليس بطيئا ولا متمهلا . وهذه المعانى العميقة والمقطع الرائع الذى يصور فيه الحياة مملة بطيئة مجسدا الليالى كأنها من أروع ما تضمه هذه القصيدة من اشراقات صافية تغمر النفس بالحقيقة. أجساد تتحرك على مهاد الزمن هذا المقطع يفلح فى اعطاء المعنى العميق لصورة الهجر دون أن يتحدث عنه . ولا يستسلم الشاعر لبطء الليالى فيرفع الرأس مخاطبا القمارى كما كان أبو فراس الحمدانى يخاطب الحمائم لعلها تعزيه فى محنته . انه يشكو وطأة الخريف ووجهه الممل وظلاله القاتمة وغيومه العقيم فها هو يعلن موت هذه الروضة بعد رحيل النديم . والروضة هنا هى روضة الحب اما الخريف فهو الهجر المؤلم الذى تتلها بهلاله وظلاله السوداء وما الذى يتبقى للانسان بعد أن تذبل روضته وتغيم السماء فوقه . فهل الدنيا الا هذا الطقس الداخلى الذى يجدب ويثمر بغياب الحب وحضوره وليس عجيبا اذن أن يعلن الشاعر أن الدنيا كلها قد شاهت وتولاها الوجوم والفتور وعدم الرغبة فى شىء . وقد يحاول الشاعر أن يلبس قناعا زائفا للسعادة وذلك باصطناع الضحك ولكن محبوبته وحدها تدرك السر الذى يقيم فى نفسه وها هو يجسد هذا السر فى هذا البيت الجميل الذى يقول .

وترى فى عمق روحى زهرة قد سقاها الحزن دمعا أبديا

فهذه الزهرة تحمل من الدلالات معانى كثيرة هل هى زهرة النفس وحقيقتها أم هى زهرة الحب أم زهرة السعادة الضائعة كل هذه معانى محتملة لا يكشف عنه الشاعر . واذا كان الخريف انما هو تجسيد لذبول العاطفة وخمود الحب وتحكم الهجر فان الغروب هو الاخر يتآزر معه فى رسم الصورة المكملة لفاجعة الحب ومأساة الحياة . وهو يوجه خطابه هذه المرة الى فؤاده فقد خاطب الحبيبة مرة والندامى مرة وطيور الروض مرة وآب الى فؤاده يستفيئه ويسأله ان كانت الحبيبة قد جادت بلفتة للشط القريب وبعد أن يتوجع من اليأس ويصور فراغ أيامه من لقائها

يتوقف بنا فجأة كأنه اكتشف جمالها وسرها وكأن هذه الصحوة المفاجئة انما هى محاولة لانقاذ نفسه من التردى فى الجنون انه يؤكد لنفسه ان سحرها لا يقاوم . ويقف المقطع الذى يبدأ بقوله اى سر فيك فى قلب القصيده كومضة اشراق . يكرس لها الشاعر كل قدراته الشعرية لوصف سحر وجمال المحبوبة . هذا السحر الغامض الغريب الذى يعلن عن نفسه فى فتنة الجسد . ويحتشد هذا المقطع بضجة موسيقية كبيرة كأنه يحاول أن يقيم لها عرسا فى نفسه يشفى نفسه من الضجر والملل . ان هذه الموسيقى العالية المفاجئة تأتى كمحاولة لمقاومة الضجر والملال وبطء الليالى الطويلة لعلها تبث الحيوية فى اوصال الحياة من جديد ثم يعود بعد ذلك الى التذكر ولكن كل ذكرياته تقود الى مدينة الوهم والحسرة والتفجع على أيام الهناءة العابرة ولكنه مستشيثبذكرياته عائد الى مغانيه القديمة .

ها انا عدت الى حيث التقينا فى مكان رفرفت فيه السعادة وبه قد رفرف الصمت علينا ان فى صمت المحبين عبادة

ان رفرفة الصمت تعطى للصمت معنى خاصا فهو يشبه الطائر السعيد ان الرفيف يوحى بالخفة والسعادة وقد الح الشاعر على هذه الصورة كأنه وجد فيها انعكاسا حقيقيا للرضى نفسه وسعادتها . ثم عاد الشاعر يتوجع ملتمسا جمالها يلوذ به من هجير الحياة وقد يميل الى تحميل الاقدار مسئولية الفراق .

انما الدنيا عباب ضمناوشطوط من حظوظ فرقتنا

وفراه بعد ذلك يتجول بين اثار الحبيب الكرسى والمائدة وكأنه يعقد الامل على الذكرى بدلا من الحقيقة الهاربة فى أن تمنحه السعادة ويختتم الشاعر قصيدته كما لو كان يرثى عصرا بأكمله مؤمنا بنهاية كل شىء ناظر الى تجربته العاطفية كما لو كانت العمر نفسه فها هو يخاطب فؤاده :

يا فؤادى العمر سفر وانطوى وتبقت صفحة قبل النوى
ما الذى يغريك بالدنيا سوى ذلك الوجه وذياك الهوى

هذه روح ابراهيم ناجى المضيئة لا ترى فى الحياة الا الحب ولا ترى فى الحب الا الالم . أما قصيدة الخريف فمرثية رائعة لتجربة خصبة عميقة ملأت حياة الشاعر بالنعاسة والفرح ولكنها انتهت كما ينتهى كل شىء . تفصح القصيدة فى كل ابياته عن المعانى الاساسية التى عاش لها ومات ابراهيم ناجى وهى ، الحب ، والحزن، والجمال .

فى الغربة

للشاعر محمود سامى البارودى

تأوب طيف من سميرة زائر ... وما الطيف الا ما تريه الخواطر
طوى سدفة الظلماء والليل ضارب ... بأرواقه والنجم بالافق حائر
فيالك من طيف ألم ودونه ... محيط من البحر الجنوبى زاخر
تخطى الى الارض وجدا ومالـه ... سوى نزوات الشوق حاد وزاجر
ألم ولم يلبث وسار وليته ... اقام ولو طالت على الدياجر
تحمل اهوال الظلام مخاطرا ... وعهدى بمن جادت به لا تخاطر
خماسية لم تدر ما الليل والسرى ... ولم تنحسر عن صفحتها الستائر
عقيلة اتراب توالين حولها ... كما دار بالبدر النجوم الزواهر
غوانل لا يعرفن بؤس معيشة ... ولاهن بالخطب الملم شواعر
تعودن خفض العيش فى ظل والد ... رحيم وبيت شيدته العناصر
فهن كعنقود الثريا ، تألقت ... كواكبه فى الافق فهى سوافر
تمثلها الذكرى لعينى كأننى ... اليها على بعد من الارض ناظر
فطورا اخال الظن حقا وتارة ... أهيم فتغشى مقلتى السماطر
فيا بعد ما بينى وبين أحبتى ... ويا قرب ما التفت عليه الضمائر
ولولا امانى النفس وهى حياتها ... لما طار لى فوق البسيطة طائر
فان تكن الايام فرقن بيننا ... فكل امرىء يوما الى الله صائر
هى الدار ما الانفاس الانهائب ... لديها وما الأجسام الاعقائر
اذا أحسنت يوما اساءت ضحى غد ... فاحسانها سيف على الناس جائر
ترب الفتى حتى اذا تم امره ... دهته كما رب البهيمة جازر
لهائرة فى كل حى وما لها ... على طول ما تجنى على الخلق واتر
كثيرة الوان الوداد مليئة ... بأن يتوقاها القرين المعاشر
فمن نظر الدنيا بحكمة ناقد ... درى انها بين الانام تقامر
صبرت على كره لما قد أصابنى ... ومن لم يجد مندوحة فهو صابر
وما الحلم عند الخطب والمرء عاجز ... بمستحسن كالحلم والمرء قادر
ولكن اذا قل النصير واعوزت ... دواعى المنى فالصبر فيه المعاذر
فلا يشمت الاعداء بى فلربما ... وصلت لما ارجوه مما أحاذر
فقد يستتيم الامر بعد اعوجاجه ... وتنهض بالمرء الجدود العواثر
ولى أمل فى الله تحيا به المنى ... ويشرق وجه الظن والخطب كاشر
وطيد يزل الكيد عنه وتنقضى ... مجاهدة الايام وهو مثابر
اذا المرء لم يركن الى الله فى الذى ... يحاذره من دهره فهو خاسر
وان هو لم يصبر على ما اصابه ... فليس له فى معرض الحق ناصر
ومن لم يذق حلو الزمان ومره ... فما هو الا طائش اللب نافر
ولولا تكاليف السيادة لم يخب ... جبان ولم يحو الفضيلة ثائر

تقل دواعي النفس وهي ضعيفة ... وتقوى هموم القلب وهو مغامر
وكيف يبين الفضل والنقص في الورى ... اذا لم تكن سوم الرجال المآثر
وما حمل السيف الكمي لزينة ... ولكن لأمر أوجبته المفاخر
اذا لم تكن الا المعيشة مطلب ... فكل زهيد يمسك النفس صابر
فلولا العلا ما ارسل السهم نازع ... ولا شهر السيف اليماني شاهر
من العار ان يرضى الدنية ما جد ... ويقبل مكذوب المنى وهو صاغر
اذا كنت تخشى كل شيء من الردى ... فكل الذي في الكون للنفس ضائر
فمن صحة الانسان ما فيه سقمه ... ومن امنه ما فاجأته المخاطر
على طلاب العز من مستقره ... ولا ذنب لي ان عارضتني المقادر
فما كل محلول العريكة خائب ... ولا كل محبوك التريكة ظافر
فماذا عسى الاعداء ان يتقولوا ... على وعرض ناصح الجيب وافر
فلي في مراد الفضل خير مغبة ... اذا شأن حيا بالخيانة ذاكر
ملكت عقاب الملك وهي كسيرة ... وغادرتها في وكرها وهي طائر
ولو رمت ما رام امرؤ بخيانة ... لصبحني بها والدهر فيه المعاير
ولكن ابت نفسي الكريمة سواة ... تعاب بها والدهر فيه المعاير
فلا تحسبن المال ينفع ربه ... اذا هو لم تحمد قراه العشائر
فقد يستجم المال والمجد غائب ... وقد لا يكون المال والمجد حاضر
ولو ان اسباب السيادة بالغنى ... لكاثر رب الفضل بالمال تاجر
فلا غرو ان حزت المكارم عاريا ... فقد يشهد السيف الوغى وهو حاسر
انا المرء لا يثنيه عن درك العلا ... نعيم ولا تعدو عليه المفاقر
تئول واحلام الرجال عوازب ... صئول وافواه المنايا فواغر
فلا انا ان أدنانى الوجد باسم ... ولا انا ان اقصانى العدم باسر
فما الفقر ان لم يدنس العرض فاضح ... ولا المال ان لم يشرف المرء ساتر
اذا ماذباب السيف لم يك ماضيا ... فحليته وصم لدى الحرب ظاهر
فان كنت قد اصبحت فل رزية ... تقاسمها في الاهل باد وحاضر
فكم بطل فل الزمان شباته ... وكم سيد دارت عليه الدوائر
واى حسام لم تصبه كلالة ؟ ... واى جواد لم تخنه الحوافر
فسوف يبين الحق يوما لناظر ... وتنزو بعوراء الحقود السرائر
وما هي الا غمرة ثم تنجلي ... غيابتها والله من شاء ناصر
فقد حاطني في ظلمة الحبس بعدما ... ترامت بافلاذ القلوب الحناجر
فمهلا بني الدنيا علينا فاننا ... الى غاية تنفت فيها المرائر
تطول بها الانفاس بهرا وتلتوى ... على فلكة الساقين فيها المآزر
هنالك يعلو الحق والحق واضح ... وبسفل كعب الزور والزور عاثر
وعما قليل ينتهي الامر كله ... فما أول الا ويتلوه آخر

* * *

شاعر هذه العصماء هو رائد النهضة الشعرية العربية المعاصرة والذي عرفناه بلقب رب السيف والقلم محمود سامي البارودي . واذا كان لنا ان نقدم وصفا تاريخيا لحياته تحدده الارقام والسنوات والايام فان حياته وشعره يظلان عصيان على هذا الوصف التاريخي لانهما

يتجاوزان حدود المصطلح الى مدار بعيد وعميق من العبقرية والثورة والالهام والبعث .

ولد محمود سامي البارودى فى السادس من اكتوبر عام ١٨٣٩ فى بيت اسرة البارودى بباب الخلق بالقاهره ابنـــا لاسرة جركسية . كان والده احد امراء المدفعية وجاء لقبه البارودى نسبة الى ايتاى البارود حيث كان احد اجداده ملتزما لها . ولقد اعطت الدنيا والموهبة للبارودى كل اسباب النعمة والبلاء اعطته . حظا عظيما من المجد وحظا كبيرا من التعاسة الشخصية . فهى حياة غنية بكل المعايير الانســـانية والفنية والاجتماعية والسياسية .

نشأ البارودى يتيما فقد مات والده وهو فى السابعة من عمره وبعد ان تلقى تعليمه الاول فى بيته شأن ابناء الطبقة الاروستقراطية وطبقـة المماليك والترك فى ذلك العصر توجه الى المدرسة الحربية التى تخرج منهـــا فى عام ١٨٥٤ . ومـــا ان اكمل الشـــاعر الفارس تعليمـــه العســـكرى حتى اظـــل عهد الخديو ســـعيد حيث انتكســـت النهضـــة التى بداها محمد على وواجـــه البارودى فراغـــا لم يكن قد تهيـــأ له وهو فى فورة شـــبابه بل لقد اعد نفســـه للمغـــامرة وخوض المعارك . والهمته النـــار المقدسة التى خلقها الله بداخله أن يتجه الى تراث الشـــعر العربى بعصوره الجاهلية والاسلامية والاموية والعباسية ينهل من منابعها . فالستوطن وجدانه هذا الشعر وفى عصوره الذهبية وما أن ذاق رحيقه حتى توهجت النـــار وفاضت موهبته شعرا غير مألوف فى عصره . كان شعراءعصره هم عبد الله فكرى ومحمود صفوت الساعاتى وعبد الله النديم وكان هؤلاء افضل من الجيـــل الذى سبقهم والذى سقط شعراؤه فى الزخارف اللفظية والعلل النحوية والاغراض الاجتماعية السقيمة فجاء البارودى بمزمار جديد على العصر تـــرن فى انغامه كل عصـــور الشعر العربى الغابرة . فى الوقت الذى كانت فيه لغة الحياة نفسها ابعد ما تكون عن الصحة اللغوية فضلا عن الفصاحة العربية والبلاغة الادبية .

اتسعت ثقافة البارودى بسفره الى الاستانة موظفـــا فى وزارة الخارجية وتعلمه للغتين التركية والفارسية وعكوفه على درس آدابهما فى الاصول اللغوية لهذين الادبين غير انه ظل وفيا شـــديد الوفاء للشعر العربى واستجابة لهذه الفطرة الادبية النادرة جلس على شاطىء البســفور يتغنى بشـــعر الامويين والعباسيين الذى كان صداه بالغ العمق فى وجدانه المرهف .

وما ان عاد البارودى الى مصر حتى اظل عهد جديد هـــو عهـــد الخديو اسماعيل الذى حاول النهوض من جديد . ورقى الشاعر الى

رتبة القائمقام . وفى عام ١٨٦٥ أصبح قائد الفيلق الرابع من حرس الخديوى ثم جاءت حرب كريت وسافر البارودى على رأس حملة من الضباط والجنود المصريين لاخماد ثورة جزيرة كريت التى كانت تابعة للدولة العثمانية وابلى الشاعر بلاء عظيما انتهى بالنصر . وتنبهت له العقول والانظار وحظى الشاعر الفارس بمكانة عالية فى وطنه واشترك مرة اخرى فى الحرب العثمانية الروسية عام ١٨٧٨ وتجلت فيها شجاعته وكوفىء برتبة أمير اللواء وكان الشعر يتأجج فى قصائد تصف هذه المعارك الحربية مبطنة بحنين جارف الى مصر ، وحين عاد الى مصر عين مديرا للشرقية ثم مديرا للاوقاف . وقد وضعته روحه الوطنية وشجاعته وشعره فى قلب الحركة الوطنية والقومية وتولى وزارة الحربية ونالت منه المؤامرات حتى اراد الاعتزال فى مزارعه ولكنه كان علما من أعلام الحركة الوطنية متعاطفا ولكن على درجة من الحذر مع الثورة العرابية وما ان فشلت هذه الثورة التى قامت لتحقق الكرامة الوطنية والاستقلال السياسى ولمقاومة النفوذ الاجنبى . ما ان فشلت هذه الثورة حتى اخذ البارودى مع قادتها وعوقب معهم بالنفى الى جزيرة سيلان . وما كان للخونة وحلفاء الاستعمار أن يغفروا له بلاءه العظيم فى خدمة الحركة الوطنية وشعره الغيور على مصلحة الوطن وحب المصريين له وحماسه الدائم للاصلاح السياسى والاجتماعى. وقضى الشاعر سبعة عشر عاما فى المنفى كانت من اقسى المحن فى حياته ولكنها كانت فى نفس الوقت فرصة الشعر الذهبية لكى يترعرع فى صومعة الالم والحنين الجارف . وظل الشاعر يعانى الغربة والوحشة وهو بعيد يرى اسرته الصغيرة يتخطفها الموت واسرته الكبيرة يستبد بها الخونة والطغاة وحلفاء فرنسا وانجلترا فيلجأ الى الشعر الغذاء والدواء . ولكن الجسد لا يكاد يحتمل كل هذه المعاناة وهو يواجه الزمن بكل ثقله وجبروته فيضعف البدن ويذوى ويكاد البصر نفسه أن يرحل هو الاخر ويصدر أمر من الخديو عباس حلمى فى ١٧ مايو ١٩٠٠ بعودة المنفيين من اقطاب الثورة العرابية وفى مقدمتهم الشاعر محمود سامى البارودى الذى يصل الى مصر ولكنه لا يلبث بها طويلا ففى الثانى عشر من ديسمبر عام ١٩٠٤ تصعد روحه الى بارئها بعد رحلة طويلة فى رحاب المجد والشعر والمحنة والعبقرية والوطنية يقول : الدكتور محمد حسين هيكل فى مقدمة ديوانه من شعره .

« شعر البارودى حياته . فكل قصيدة فى ديوانه صورة لحالة نفسية من حالات هذا الشاعر الملهم . والديوان فى مجموعه صورة للعصر الذى عاش فيه وللبيئة التى احاطت به وللنهضة المتوثبة فى الحياة حوله وللثورة التى تمخضت عنها تلك النهضة وللنكسة التى اصابت النهضة والثورة كلتيهما والتى نقلت الشاعر من وطنه الى منفاه ليقيم به سبعة عشر عاما وبعض عام يستأثر الشعر بها جميعا وقد اختار البارودى فى اثناء نفيه أجود ما قيل من الشعر فى العصر العباسى وقال أجود مما اختار . فبعث الشعر العربى خلقا جديدا وشعر المنفى

كشعر الشباب وشعر الكهولة صورة صادقة لهذه الحياة التى اراد لها القدر ان تكون نغما من الانغام ، تسمو بها النشوة الى ذروة السرور والطرب حينا ويدفعها الطموح الى مضطرب الثورة والمثل الاعلى حينا آخر ثم تصقلها السنين ويصقلها النفى فاذا الحكمة والحنين والحب تبعث الى هذا النغم سكينة تسمو على المألوف من الحان الحياة لا يغير من ذلك ما يدفعه النفى الى نفس الشاعر من ألم تترجم عنه صيحات ثائرة تعيد امام اذهاننا صورة من نزوات شبابه وثورة كهولته » .

تكشف هذه القصيدة بعد تأملها عن عالم البارودى بابعاده الفنية والانسانية الواسعة . فهى تمثيل بالغ الحساسية والاصالة لنموذج القصيدة البارودية التى تنتمى الى شاعرها بقدر انتمائها الى عالم القصيدة العربية فى ازهى عصورها قد تحس وانت تطالعها ان انفاس عمالقة الشعر العربى تتردد فى ابياتها ومقاطعها وان جرسها شائع فى قصائد المتنبى والبحترى وابى العلاء وان لغتها جزلة جزالة القصائد العباسية بل ان صورها الشعرية توشك ان تكون شائعة فى الشعر العربى القديم ومن ذا الذى يمنع نفسه من تذكر امرىء القيس والنابغة الذبيانى وهو يقرأ وصف البارودى لليل . ولكن هذه الالفة الشديدة فى اللغة والموسيقى والصور الشعرية والبناء الفنى الذى ينتقل من غرض شعرى لاخر هذه الالفة لا تحملك على التصكير للشاعر واصالته ولا تحملك على التماس جذور صوره فى قصائد الاخرين حتى تسهو عن شاعرها الحقيقى بل انك لتشعر بقوة باحساسين متعارضين سرعان ما يصبحان احساسا واحدا . القصيدة تبسط عالم القصيدة القديمة امام وجدانك فهى جياشة بالحس التاريخى العميق ولكنها تتفرد بصياغة اصيلة تحس عبقها ولا تدرك كنهها . واذا كانت التجربة تصنع الشكل فان تجربة البارودى المتميزة فى الحياة تتبدى بالغة التميز فى شكله ايضا فهو حين يصف الليل لا يصفه شاكيا ولا باكيا ولا يلحقه الوهن بل هو جلد على حوادث الايام صابر على بلائها وينعكس صبره وجلده فى هذا التركيز والتماسك فى بنية الجملة الشعرية . وكذلك تنعكس شخصيته وتجربته بقوة فى اختيار بحر الطويل بامتداده وثقله واتساعه لامواج النفس الملتاعة ولكنك لا تحس ضعفا ولا رغبة فى الافضاء بل هو يمسك باطراف تجربته التى تتنوع بين تجسيد حلم الزيارة التى قامت بها سميرة وبين التجلد اعتمادا على ايمان بالله عميق وقد يجنح الى الفخر حيث يظل الشاعر متنبها الى جوانب العزة والقوة فيه ولكنه لا يفرط فى ذلك ويكاد يصل الى أن مناط القوة والمجد انما هو الحكمة والفضيلة وليس المال والنعيم والجاه الكاذب . هو شاعر يقرأ على قسمات جراحه آيات من الحكمة والتواضع والتجرد من الاشياء التى يراها الان باطلة كل البطلان .

ان القصيدة تبدأ من الحلم العزيز الذى يرى فيه الشاعر خيال ابنته سميرة يزوره متخطيا الفيافى والبحار والاماد البعيدة والليالى

المظلمة . ويبدو أن قوة الشوق الغلابة فى ضميره قد جعلته يصرح من البداية ان هذا الخيـــال الذى جـــاءه ليلا انمـــا هو تجســـيد لقـــوة مخيلته التى تستحضر هـــذه الابنـــة على جنـــاح الشوق . لكأنه يصارحنا من البداية أنه يعانى من البعد عن اهله ولا وسيلة له الا الخيال القوى . وينسى الشاعر بعد وهلة عابرة انه صارحنا فيتمادى فى وصف هذا الخيال وكأنه يتصور أننا مازلنا مقتنعين بأن الزيارة حقيقيـــة فى الواقع وينتقل من وصف الظلام الذى قطعه الخيال الى وصف الخيـــال وصاحبته بل وصاحباتها اللواتى تلهو معهن ثم يعـــود مرة أخرى بعـــد أن تناسى أنه قد صارحنا بحقيقـــة خياله ليؤكد أن الذكرى هى التى تجسد لعينيه هذه الابنة الصغيرة التى لا يزيد طولها عن خمســـة اشبار فهى طفلة تحتاج الى حنـــان الاب وعطفه . والشاعر يلجأ الى هذا المدخل الرقيق حتى يعطفنا بقـــوة على محنته دون أن يجد نفسه مضطرا الى التصريح عن مشـــاعره مفضيا الينـــا من البداية بوجيعته . ان كبرياء الشاعر الفارس تظل عصية تغالب المكروه فى هذا المنفى البعيد فلا تنحنى ولا تضعف وحتى حين يفيض به الوجد فيصرح بعاطفته الابوية والانسانية لا تجدبدا من احترام هذه المشاعر القوية حين يقول :

فيـــا بعد ما بينى وبين احبتى ويا قـــرب ما التفت عليـــه الضـــمائر
ولولا امـــانى النفس وهى حياتهـــا لمـــا طار لى فوق البسيطة طائـــر

وكأن البيت الثانى انما هو اعتذار عما افضى به الشـــاعر من تخيل احبابه يزورونه فى المحنة أو هو يستحضرهم اليه وهنا تتجلى شخصية البارودى الشامخة التى يجعل تجربته مفارقة لتجارب الاقدمين من الشعراء ونجد تعبيره يختلف عن تعبيرهم أيضا . فالشعراء الاقدمون لا يأبهـــون للتبرير والتفسير والاعتذار عمـــا فى نفوسهم هم ماضون وحدهم فى بيداء يطوف بها الموت والغربة من كل جانب وليس لهم ذلك المجتمع الذى كان لـــدى البارودى ولا كان لديهم هـــذا الضـــمير الحديث الذى يكبل الفرد بأغـــلال التحضر ومراعاة الاخرين فى الافضـــاء واعـــلان هـــوى النفس . ولكن البارودى لا يرى أنه قد اتى شيئا يلام عليه فينصرف حتى لا تستولى عليه العاطفة العميقة الى التأمل الفلسفى الذى يتوكأ على ايمان عظيم بالله واستخفاف حقيقى بهذه الدنيا واعتقاد بأنها لاتحسن الا لتسىء ولا تزيد من قيمة المرء الا لتقتص منه بل لتقتله كما يذبح الجزار بهيمته بل انه يرى فيها صورة المقامر . هذه الصورة العصرية التى تنتمى الى عصرنا بمعاييره وقيمه . حتى وهو تتودد اليه وهى كثيرة التودد نراها جديرة بأن يتجنبها العاقل الرشيد .

كثـــيرة الـــوان الـــوداد مليـــةبأن يتـــوقاها القـــرين المعـــاشر

هى امراة خائنة هذه الدنيا أدن وهو منها على حذر . ولكنه لايلبث ان يتذكر قدرة الله وامله فيه هذا الامل الذى تحيا به الامانى وتضيء الظنون به وسط المحن .

اذا المرء لم يركن الى الله فى الذى يحـــــاذره من دهـــــره فهو خاسر

ويبدو أن التماس الايمان انما هو حصنه الذى ينشده حتى لا تتداعى قواه التى يرى ان اختبارها فى الملمات هو أمر طبيعى . فكل ما يـــكابده البارودى انما هو تكاليف السيادة ومطلب من مطالب العلا وداع من دواعى النفس القوية ثم يجاهر بنفسه برفضه للدنية رفض الغاضب الذى لا يتبل لنفسه الهوان وهو يبرهن على صحة دعواه برفع قيمة الشجاعة فى الحق وعدم الخوف من الدنيا .

اذا كنت تخشى كل شيء من الردى فمن صحة الانسان ما فيه سقمه
فكل الذى فى الكون للنفس ضائر ومن أمينه ما فجـــــأته المخـــاطر

ويبدو أن هذا التمهيد كان مدخلا منطقيا للون من الفخر بالنفس ربما كان غير متوافق مع هذه الحكمة التى تزدرى الدنيا ولكنها أيضا فى موقف الدفاع عن النفس . فلو انه استسلم للزهد والحكمة التى تقول ببطلان الحياة لخلت القصيدة من القيمة الايجابية التى تنفع الحياة نفسها ومن هنا نرى ان هذه القصيدة لا تلتف على غرض شـــــعرى واحد تستنفده وتفنيه وتفنى معـــه بل هى شجرة كثيرة أوراق الحزن . بعيده الاغصان فى رؤيـــة تهـــزها ريح المحنـــة ولـــكنها لا تنكسر ابدا فى يد هـــذه الريح ورغم أن الشاعر يصف ظلمه المحنـــة التى تلم به فهو يرى ذلك امرا عارضا .

وأى حســـــام لم تصـــبه كلالـــة ؟وأى جـــــواد لم تخنـــــه الحوافر

ويعلن عن ايمان بالحق ونكران للباطل :

ومـــا هى الا غمـــــرة ثم تنجـــلى غيابتهـــا واللـــه من شاء ناصـــر

والقصيدة التى تبدا بالحلم وتعلو امواجها الى الفخر تنتهى بالتسليم بعد أن يكون قد كشف بجلاء عن جوهر شخصيته وتجربته وعصره فى لغة بليغة تريك لغة عصور بأكملها ولكنها تظل ملكا اصيلا لشاعرها الذى ابدعها . ومن هنا لا نستطيع أن نقول أن القصيدة رغم جنوحها الى الحكمة والفخر والحنين والايمـــان بالله والتسليم متعددة الاغراض بل قصـــيدة واحدة الغرض بالغة الدلالة من ناحية الشكل الفنى ومن ناحية التجربة على شخصية الشاعر محمود سامى البارودى وهكذا تلتقى القصيدة مع القصائد القديمة وتفترق عنها كما يقترب الابن من الاب ويفترق عنه لتكون له قسماته واقدار حياته .

محمـــد ابراهيم ابو سنه

فهرس

(أ) مدخـــل	١
ـــ « واحر قلباه » لأبى الطيب المتنبى	٣
ـــ « رثاء الجدة » لابى الطيب المتنبى	١١
ـــ « مرثية » لابى العلاء المعرى	١٨
ـــ « لقد انصبتنى أم قيس » لكعب بن سعد الغنوى	٢٥
ـــ « شاعر يرثى نفسه » لمالك بن الريب	٣٢
ـــ « المؤنسة » لقيس بن الملوح	٣٩
ـــ « غزليات الأحوص » للأحوص الانصارى	٤٥
ـــ « غزليات » لعمر بن ابى ربيعة	٥٣
ـــ « فى الحب » للعباس بن الأحنف	٦١
ـــ « ته دلالا فانت أهل لذاكا » عمر بن الفارض	٦٧
ـــ « غزليات » لأبى تمام حبيب بن اوس الطائى	٧٤
ـــ « لامية العجم » للطغرائى	٨١
ـــ « ابو الهول » لأحمد شوقى	٨٩
ـــ « الخريف » لابراهيم ناجى	٩٧
ـــ « فى الغربة » محمود سامى البارودى	١٠٧

رقم الايداع ٨١/٢٨٨٦

الترقيم الدولى ٧ ــ ٢٨ ــ ٧٣١٥ ــ ٩٧٧

مطبعـــــة
مؤسسة يوم المستشفيات
١ شارع بستان الخشاب بالمنيرة
القصر العينى ــ القاهرة

العرب

To: www.al-mostafa.com